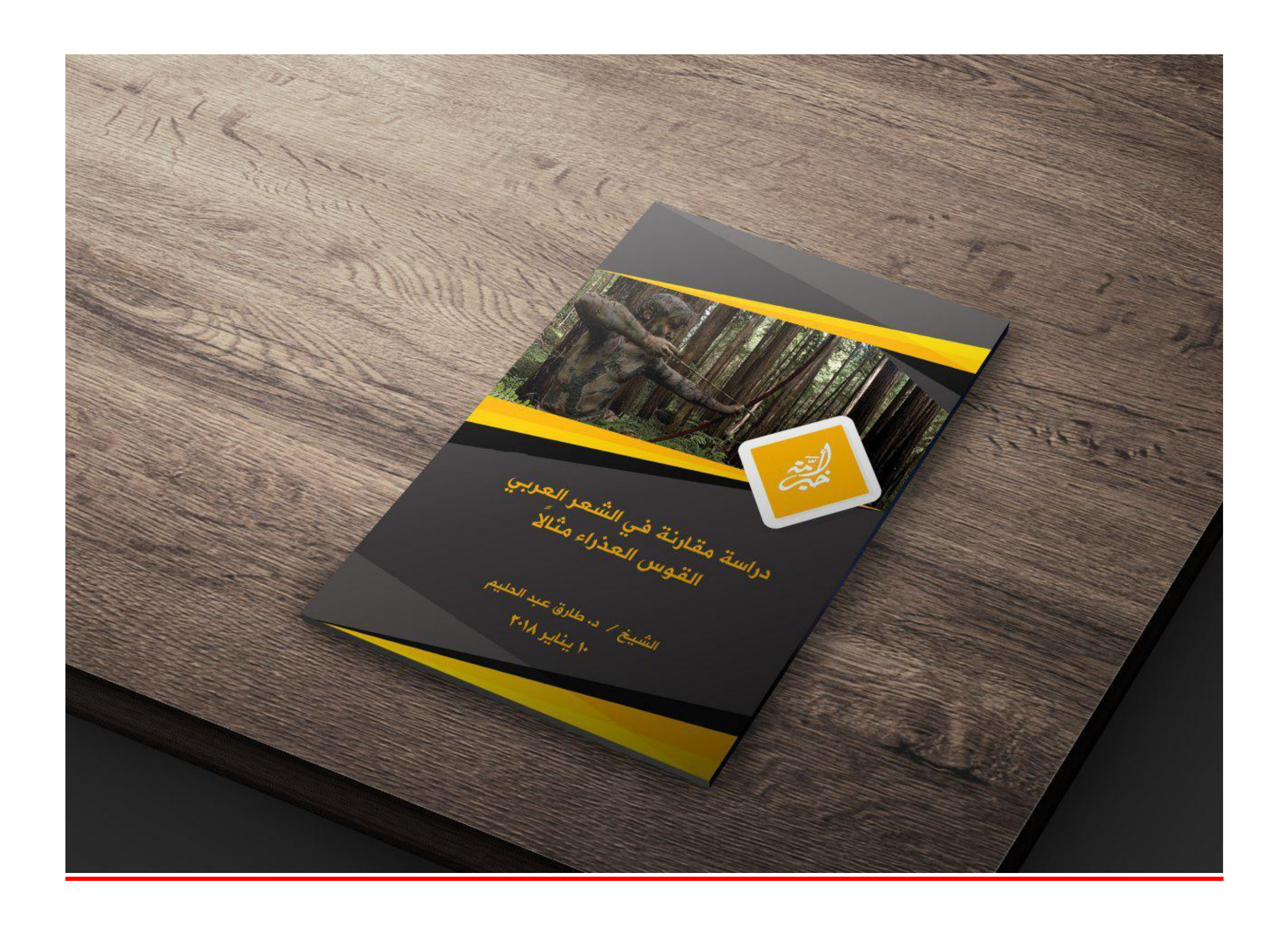

(58)
مجموعة المائة بحث
دراسة مقارنة في الشعر العربي
القوس العذراء – مع تعليق وإيضاح
صدر في :
يناير/ 2018 م
بقلم الدكتور :
طارق عبد الحليم
مؤسسة الراية للإنتاج الإعلامي


دراسة مقارنة في الشعر العربي
القوس العذراء مثالًا
الشيخ / د. طارق عبد الحليم
١٠ يناير ٢٠١٨

دراسة مقارنة فى الشعر العربى .. القوس العذراء

محتويات البحث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآله وصحبه ومن والاه، وبعد

القسم الأول

1) تمهيد

القوس العذراء، وما القوس العذراء؟ تلك التحفة البديعة التي أظهر فيها، مُبدِعُها العلامة الفرد الفذ الشيخ أبو فهر محمود محمد شاكر، عملاق لسان العرب، وصاحب المنهج المفرد في نقد الشعر وتحقيق أصوله، ونفض المنحول فيه من الصحيح، منهج "التذوق"، فإذا به يعبُر ببصيرته غيب القرون الفائتة، ليصل إلى عهد الشمّاخ بن ضرار الغطفانيّ، الشاعر الفحل والصحابي المخضرم، ليستخرج مما كتب قبل الإسلام، قطعة شعرية مرّ عليها عشراتٌ بل مئات، بل آلاف من القراء، لم يروا فيها، على اختلاف نظرهم وذوقهم الشعري، إلا قصيدة متينة البنيان، قوية المعنى، تصف ما جرت عادة القوم أن تصف في ذاك الزمان من أمر الأقواس والنبل والغاب وصيد الوحش، ليس إلا. فإذا بعملاقنا الفذّ، يرى فيها أضعاف أضعاف ذلك النظر الساذج الظاهر، وإذا به يسبر أغوارها، ويهتك أسرارها، فيستخرج منها ما لم تره فيها أجيال من قبله.

وجد شاعرنا الفحل، أسرارا وأبعادا في تلك القصيدة التي بلغت أبياتها ستة وخمسون بيتا، منها سبعة عشر بيتا كانت هي موضع اهتمامه ومحط استلهامه، استولد منها مائتين وتسعين بيتا، فكشف ببليغ قلمه وثاقب فكره وصافي ذوقه كيف يرتبط ماضينا بحاضرنا ارتباط الوليد بأمه، لا تتصور كيف تعيش دونه، ولا يمكن للوليد أن يعيش دونها.

استخرج عملاقنا من تلك الأبيات، إذن، دروسا فلسفية، وعبرأ أخلاقية، سنتحدث عنها بعد برهة، يلتقط القارئ فيها أنفاسه من زخم الحديث عن ذلك الفحل الأديب.

2) مقدمة

تنازع الأدباء كثيراً، في مقتبل القرن الماضي، في شأن الشعر، عاموديّه المُقفى، وحديثه المُرسل المسترسل، ونشأت مدارس شعرية تنافس المدرسة التقليدية المحافظة بزعامة أحمد شوقي وخليل مطران، مثل مدرسة أبولو بقيادة أحمد زكي أبو شادي، ومدرسة الديوان بقيادة عباس العقاد. ولست في هذا المقال بصدد الحديث عن الشعر القديم والحديث، ولا بأثر كلّ منهما، لكني أريد أن أثبت هنا أن قصيدة شاعرنا الفحل محمود شاكر، هي دليل علوّ كعب الشعر القديم، وإن استفاد في بنائه الداخلي من بعض خصائص شعر مدرستي أبولو والديوان.

وقد انقسمت الدروس المستفادة من قصيدة القوس العذراء، متنوعة متعددة الجوانب كما وصفنا، منها الأدبي والروحي، ومنها الاجتماعي والنفسي، ومنها التاريخي الحضاري حيث بنى ذلك الجسر التاريخي بين

الماضي والحاضر، كأنهما لا يفترقان إلا بأيام أو أسابيع، "فإذا دبَّت بينَهما جَفْوة تَخْتل [(1)] النَّفس حتى تَمَلّ وتَسْأم، أوْ عَدَتْ اليهما [(2)] نَبْوة تُراودُ القلبَ حتى يَميل ويُعرضَ، انطمستْ عندئذٍ أعَلامُ [(3)] النهج الأوّل، وركدتْ بَوارقُ [(4)] الهدْيِ المُتقادِم، وبقي الإنسانُ وحيداً مَلُوماً محُسوراً لا يزال يسْأل نفسَه: فيمَ أعملُ؟ ولم خُلِقت؟ وفيمَ أعيش؟ فما يكون جوابُه إلاَ حَيْرةً لا تَهْدَأ، ولهيباً لا يَطفَأ، وظَلاماً لا يَنْقِشع"[5]!

ثم على رأس تلك الدروس بعدها الفلسفي الذي أقامه بين عمل الإنسان الذي يُخرجه فنّاً، وفنّ الإنسان الذي يُجسّده عملاً. وقد تناول عملاق العربية ذلك البعد في مقدمته التي كتبها لصاحبه، يعتصر فيها من ذات نفسه ما عاناه في محاورة تلك العلاقة، ومحاولة بيان موقع كلاهما من الآخر، "فالعملُ كما تَرَى، هو في إرثِ [(6)] طَبِيعته فنٌ مُتمكّن، والإنسانُ بَسِليقة [(7)] فِطْرَتِه فَنَّان مُعْرِقٌ"[8].

3) عن قصيدة الشمَّاخ

إذا ولينا النظر إلى قصيدة الشمَّاخ الأصلية، وتأملنا بيوتها السبعة عشر، بقافيتها الزائية، الصعبة الجرس، وهي من بحر الطويل، رأينا في مدخلها ما نرى في كافة قصائد العرب في زمانه، البكاء على أطلال الحبيب

عفا بطنُ قوٍ من سُلْيمى فعالزُ فذاتُ الغَضا فالمُشرفاتُ النواشِزُ[9]

لكننا سننتقل إلى الأبيات السبعة عشر، التي استولدها عملاق الأدب قصيدته الحديثة:

وحلأها عنْ ذي الأراكــةِ عامرٌ أخو الخضرِ يرمي حيثُ تكوى النواحزُ[10]
قليلُ التلادِ غيرَ قوسٍ وأسهمٍ كأنَّ الذي يرمي من الوحش تارزُ[11]

---

(1) ختله: خدعه على حين غفلة.

(2) عدت إليه: أسرعت إليه على حين بغتة. والنبوة: القلق الذي يمنع الاطمئنان.

(3) أعلام (جمع علم): وهو المنار الذي ينصب في الطرق لهداية السارين.

(4) ركد البرق: سكن وميضه. والبوارق (جمع بارقة): وهي السحابة ذات البرق.

5 القوس العذراء

(6) الإرث: الأصل الموروث.

(7) السليقة: الطبيعة التي لاتحتاج إلى تعلم. معرق: أصيل، له عروق ممتدة إلى أصوله.

8 السابق

9 قوّ، وذات الصفا، عوالز هي أماكن محددة، والمشرفات النواشز هي الأماكن العالية التي رآها تحيط بما عفا من أطلالِ منازل سلمى التي يفتقدها عنها.

10 حلأّها: منعها من الماء، ذو الأراكة: محل وضع، النواحز: الجِمال

11 التلاد: القليل من الموروث، التارز: الصلب

مطلاً برزقٍ ما يداوى رميها و صفراءَ من نبعٍ عليها الجلائزُ[12]
تخيرها القوَّاسُ من فرعِ صالةٍ لها شذبٌ من دونها وحواجـــزُ[13]
نَمَتْ في مَكانٍ كنَّها واستوتْ بهِ فما دونها من غيلها متلاجزُ[14]
فما زال ينحو كلَّ رطبٍ ويابسٍ وينغَلُّ حتى نالَها وَهْي بارزُ[15]
فلمّا اطمأنَّتْ في يديه رأى غِنى أحاطَ بهِ وازورَّ عمن يحاوز[16]
فَمَظَّعها عامَيْنِ ماءَ لِحائها و ينظرُ منها أيها هو غامزُ[17]
أقامَ الثِّقافُ والطريدةُ دَرْأَها كما قَوَّمتْ ضِغن الشَّموسِ المَهامِزُ[18]
فوافى بها أهلَ المواسمِ فانبرى لها بيعٌ يغلي بها السومَ رائزُ[19]
فقال لهُ : هل تشتريها فإنها تباعُ بما بيعَ التلادُ الحرائزُ[20]
فقال : إزارٌ شرعبيٌّ وأربعٌ من السِّيَراءِ أو أَواقٍ نواجزُ[21]
ثمانٍ من الكيريِّ حمرٌ كأنها من الجَمْرِ ما ذّكى من النارِ خابِزُ[22]
وبُردانِ من خالٍ وتسعون درهماً ومعْ ذاكَ مقروظٌ من الجِلْدِ ماعِزُ[23]
فظلَّ يناجي نفسه وأميرها أيأتي الذي يُعطى بها أم يُجاوزُ[24]
فقالوا لهُ بايعْ أخاكَ ولا يَكُنْ لكَ اليومَ عن رِبْحٍ من البيع لاهِزُ[25]

---

[12] الجلائز: مفردها جلزة وهي ما يُعقد على القوس من عُقدٍ لتقويتة عوده.

[13] صالةٍ: المكان المتسع، الشذب: قطع الشجر.

[14] كنَّها: مخبئها، غيلها: موضعها، متلاحز: أي متشابك الأغصان

[15] ينحو: يحرك جانبا، ينغّل: يدخل، بارز: أي وهي ظاهرة له بعد أن نحى الرطب واليابس من طريقه اليها

[16] ازور:تباين عنه، يحاوزه: يكون بجانبه أو يطلبه، بمعنى أنه انفرد بها عن الناس

[17] مظّعها: قطعها رَطبةً ثم وضعها بلحائها في الشمس حتى تجفّ ويبقى لحاؤها عليها ؛ لئلا تتصدَّع وتتشقَّق، غامز: متشقق

[18] ضغن، التفلت والغضب، الشَّموس: النافرة الجامحة من الحيوان، المهامز: مفرها مهماز:حديدة في حذاء الراكب يقوم به مسار الركوبة

[19] وافي: ذهب وتوجه، السوم: المساومة على بيع، رائزُ: مختبرٌ لمن يشترى

[20] التلاد: المتاع ذو القيمة الغالية، الحرائز: المقتناة لقيمتها المضنون بها فهي حريزة

[21] شرعبيّ: نوع من الأردية الطويلة، السّيراء: نوع من البرود المطعمة بخطوط الحرير الأصفر، أواق ناجزة: أي دراهم حاضرة معجلة

[22] الكيثري أو الكوري في بعض النُسخ، ما يصاغ من قطع لدي الصائغ، والخابز: صانع الخبز

[23] بردان: رداءان، الخال: بردٌ يمني أحمر فيه خطوط سوداء، مقروظ، أي مدبوغ بأحسن دباغ.

[24] ظل يسائل نفسه وذاته، أيأخذ الثمي ويبيع أم يتجاوز عن الصفقة وينساها.

[25] لاهز: مانع يصدك عنه. وقالوا عائدة على حاضري السوق ممن شهدوا السوم.

فلما شراها[26] فاضتِ العينُ عبرةً وفي الصّدرِ حُزّازٌ من الوجْد حامِزُ[27]

وسأقوم فيما يأتي بعرض الأبيات التي استلهم منها عملاق العربية الشيخ شاكر، مقارنا لها بما في أبياته الموازية لها من قصيدة الشمَّاخ، لنرى معالجة الشيخ العلامة لتلك الواردات العبقرية التي استلهما معان عرضنا لها من قبل بإجمال.

وسيكون عرضي أقرب لتتبع تلك الأفكار التي عرضتها، من الناحية الوجدانية والفلسفية والأخلاقية، ثم ما نستشفه من تلك النهاية التي وضعها العلامة شاكر لقصيدته، مخالفا بها ما كان من الشمّاخ فيما نسج.

4) قصة القوس ..

والقوس، هو مادة تلك القصة القصية المُحزنة، التي أُفعمت بمعان وحِكم، تجاوزت بها قرنها إلى ما بعد خمسة عشر قرنا، لتحيا من جديد. ذلك أن المعان والحكم لا تموت بموت من رفع عنها الغطاء، بل هي كائنة كامنة في نسيج النفس والكون جميعا.

أمّا عن اختيار الشمَّاخ للقوس، فهو بديهيّ معروف، إذ إن البيئة تفرض نفسها على عقلية الشاعر الأديب، فترغمه إرغاماً على استخدام أدواتها التي تعوّد هو والناس من حوله عليها.

لكن أمر القوس، كما سنرى، تعدى في حالة الشمَّاخ حقيقة القوس المادية، حتى أصبح رمزاً لتلك العلاقة التي رسمها الشيخ العلامة شاكر بين العمل والفن، فإذا بالقوس، التي هي، عادة وعرفاً، رمز القوة والتطارد وألة الصيد والموت، تصبح في استعمال الشمَّاخ، كما استولدها العلامة الجليل، وسيلة للحزن والأسى، ورمز للفقدان والتأسي، وعلامة على الوفاء والولاء. وتلك هي العبقرية التي فتح بابها الشمّاخ، ثم ولج ساحتها العلامة الجليل ليبيّن كيف، ولما، كأدق ما يكونا في نفس صاحب شأنها.

ثم، نلحظ أنّ الشمَّاخ قد بدأ قصيدته بالبكاء على أطلال سلمى، التي عفا عليها الزمن في مكانها المستقر، بين المشرفات والنواشز، كما هي عادة شعراء العرب في تلك القرون، إلا أن شاعرنا الجليل، تجاوز هذه المقطوعة من القصيدة، وذهب إلى ما رأي فيه تفرداً جديداً بديعاً وقصة حب وعشق من لون آخر، غير ما تعود الناس. ولهذا تلمح تلك الصلة في تسميته لقصيدته "القوس العذراء"! فالقوس هي موضوع القصة، نعم، لكن لِمَا العذراء؟ ألأنها تُشبه الحبيبة الحيّة في نقائها وطهارتها، حيث انتقاها وهي في كنّها المتلاحز؟ أم قصد بذلك عملاق الأدب الجليل أنّ يشير إلى ما لتلك الفريدة المصونة من قدر، كما للمحبة الوالهة من قدر، ليعكس مرارة فقدانها يوماً ما، كما يفقد الحبيب محبوبه الذي لم يتمتع منه بشئ بداءة؟ أم ليعكس بشاعة أن

---

[26] شراها أي باعها

[27] حزازٌ:قاطع للنفس يحزّها من الألم، حامزُ: ذو مذاق مرير حامض. دليل على عذاب النفس وتحسرها

تقع العذراء الضعيفة المستسلمة في يد من لا يقدّرها حق قدرها؟ كلها أوجه قد يصح أحدها، وقد تصح كلها في آن واحد.

وقصة القوس تبدأ بعد أن خرج القواس الشاعر، فبكى الأطلال العافية، ثم عرج على الغاب يريد ما يريده طالب الصيد، يقتات به، غذاء أو بيعاً، فلاقى جمعا من الوحش، يطلب عينا للماء يرتوى منها، لكن ما أن لمحت الوحش عينيّ ذاك الرامي الماهر تترصدها، جفلت وفرّت من طريقه، مؤثرة أن تعاني العطش على أن تعانى الموت من سهامه.

لكن الله أراد بهذا القوّاس خيراً، وأن يرزقه عطاءً لم يكن في باله ولم يمر بخياله! وإذ هو في مخبئه يترصد تلك الوُحُش الجافلة، فيلمح من طرف عينه، ما صرف همّه عن تلك الصيد الهاربة. رأي، ويا عجب ما رأي، غصنا قوياً صلبا، متواريا عن الأعين بين شذب الأشجار، كأنه يتفادى أعين الناظرين قصداً. رأى القواس ما في تلك القطعة المتفردة عن شجرتها من تفرد في الكيف، لا يماثلها فيه قطعة رآها من قبل، فإذا به يشق طريقه بين تلك الفروع والأوراق وبقايا الشجر التي تكاثفت حولها تمنع عنها الغيل والعدوان.

فما زال ينحو كلَّ رطبٍ ويابسٍ وينغَلُّ حتى نالَها وَهْي بارزُ

وما أن استقرت في يد القواس، ومسّ قدها، ورأي ما يحب أن يرى في مادة قوسه، طائعة لينة في ظهرها عصيّة شديدة في بطنها، عرف أنه وجد بغية، وحصل على طُلبة، تستحق العناء والتعب، فانفرد بها بعيدا عن الأعين.

فلمّا اطمأنَّتْ في يديه رأى غِنى أحاطَ بهِ وازورَّ عمن يحاوز

صابر الشمّاخ تلك القطعة الفريدة، مدة عامين، نعم عامين كاملين، أعطاها من حياته متطوعاً، يعمل في تسويتها كما يجب أن تُسوى القوس، فيقيم معوجّها ويحنى مسار طولها، ويسقيها ماء اللحى حتى تشتد به، كما يشتدّ الرضيع من لبن أمه.

فَمَظَّعها عاميْنِ ماءَ لِحائها و ينظرُ منها أيها هو غامزُ[28]
أقامَ الثِّقافُ والطريدةُ دَرْأَها كما قَوَّمتْ ضِغن الشَّموسِ المَهامِزُ[29]

[28] مظّعها: قطعها رَطبةً ثم وضعها بلحائها في الشمس حتى تجفّ ويبقى لحاؤها عليها ؛ لئلا تتصدَّع وتتشقَّق، غامز: متشقق

[29] ضغن، التفلت والغضب، الشَّموس: النافرة الجامحة من الحيوان، المهامز: مفرها مهماز:حديدة في حذاء الراكب يقوم به مسار الركوبة

فما أن اختبرها، وتم له منها ما سعى اليه من تفرّد في الكيف، خرج بها إلى السوق، يريد أن يرى ما يأتي به القدر من شارٍ لها، وهو مصمم على ألا يبيعها بثمن بخس دراهم معدودة، فهوليس فيها زاهد ولا مفرّط، لكنها الحاجة، لعنها الله، دفعته أن يبذل جزءا من حياته ليحفظ على نفسه جزءا آخر منها.

فوافى بها أهلَ المواسمِ فانبرى لها بيعٌ يغلي بها السومَ رائزُ[30]

وفي السوق، عيون خبيرة مترصدة، فلمحها من عرف فيها النُبل والقدْر، فلم يتواني إلا أنّ يتوجه إلى القواس صاحبها، فيعرض عليه صفقة يصعب على أحد في مثل حاجته أن يردّها، وبدأ التساوم بينهما، فجذب أسماع أهل السوق، فالتفوا حول البائع والشاري، ينظرون وينتظرون. وفي هذا خلال هذا التساوم، لم تهدأ نفس القواسّ ولم تتستقم لها فكرة البيع والتخلي عن عمله الفني، أو فنه العملي، الذي صرف فيه عامين من عمره، فصار يراجع نفسه يستشيرها، ويدور بها بين عقله وقلبه، وبين حاجته للمال ووفائه لصنعته.

فظلَّ يناجي نفسه وأميرها أيأتي الذي يُعطى بها أم يُجاوزُ[31]

وظل الشاري يزيد في العرض حتى أخرج أهل السوق عن حيادهمن فصاروا يهتفون به أن "بعها لأخيك.."

فقالوا لهُ بايعْ أخاك ولا يَكُنْ لكَ اليومَ عن رِبْحٍ من البيع لاهِزُ[32]

وأخيراً، تغلبت الحاجة على الوفاء، والعوز على الانتماء، فباعها. وما أن استقرت في يد الشاري، ضاقت به نفسه، وبلغ من اليأس والحزن مبلغاً، لا يعلمه إلا من فقد الأحبة الأقربين

فلما شراها فاضتِ العينُ عبرةً وفي الصّدرِ حُزّازٌ من الوجْد حامِزُ[33]

هذه قصة القوس مع صاحبنا الشمّاخ. بسيطة سهلة، لكنها عميقة ممتنعة، لم يستخرج دررها الكامنة إلا عملاق العربية شيخنا الجليل محمود شاكر. فلنر كيف تناولها ذلك الفنان القدير، فيما يأتي من بحث إن شاء الله.

26 ديسمبر 2017 – 8 ربيع ثان 1439



[30] وافى: ذهب وتوجه، السوم: المساومة على بيع، رائزُ: مختبرٌ لمن يشترى

[31] ظل يسائل نفسه وذاته، أيأخذ الثمي ويبيع أم يتجاوز عن الصفقة وينساها.

[32] لاهز: مانع يصدك عنه. وقالوا عائدة على حاضري السوق ممن شهدوا السوم.

[33] حزازٌ:قاطع للنفس يحزّها من الألم، حامزُ: ذو مذاق مرير حامض. دليل على عذاب النفس وتحسرها

القسم الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآله وصحبه ومن والاه، وبعد

5) العذراء .. في يد محمود شاكر: تقدمة[34]

انتهينا إلى موضع نهاية قصة القوس مع صاحبها، الشّماخ بن ضرار الغطفاني، وهي تلك النهاية الحزينة التي ذهب صاحبها مولياً ظهره لمصيبته في قوسه، باكيا عليها، قانعا على مضض بما أخذ من متاع.

لكن قصة القوس الحزينة، قد اتخذت، في يد محمود شاكر، منعطفات جديدة، بيّنت بتفصيل دقائق العلاقة بين القواس وقوسه، ووضحت بما لا مزيد عليه، تلك العوامل النفسية التي تجترها النفس الإنسانية في معاناتها للإبداع، فنا وعملاً، كما أقام ذلك الجسر الذي افتقده الناس طويلا، والذي عمل على هدم بقاياه من زعموا التجديد في مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية، مثل طه حسين وسعد زغلول وقاسم أمين على الترتيب. كما أنه قدّم لوناً جديدا من ألوان الحبّ والألفة والمودة والقرب، بين الإنسان وبين صنعة يديه، زادت على الحب والألفة بين الإنسان وقرينته في دنيا الناس.

أحال الشيخ شاكر القوس من حالة الجماد المتصلدة إلى حالة الحياة المتدفقة، فإذا هي بين يديّ صانعها شخص من الشخوص، يحبُ، ويأملُ، ويتودد وينكر، لا ينقصها إلا ما في الإنسان من دواعي الشر الذاتية، تدفعها لأذى غير مبرر!

انظر اليها وهو يروى ذكرى لقائهما الأول

كَيْفَ قَرَّتْ فيِ يديه، واطْمأنَّتْ لِفَتَاهَا؟

واعتبر استعماله قافية الهاء السهلة المحببة، في وصف ذاك اللقاء وما بعده، في مقابل قافية الزاي الثقيلة الصلبة، التي استعملها الشمّاخ لتناسب بيئته الخشنة الوعرة.

ثم انظر كيف نسبها لنفسه، الفتي، كما تنتسب المحبوبة، التي قرّت في مستقر حبيبها، اليه، وتفقد ذاتها بين يديه؟

كَيْفَ نَاجَتْهُ.. وَنَاجَاها.. فَلاَنَتْ.. فَلوَاهَا؟

---

[34] نود هنا أن نلمح إلى ما كتب الشاعر الفنان المبدع محمود حسن إسماعيل، في مقدمة كتاب القوس العذراء لشاعرنا العملاق، في أبيات كأنه عارض فيها أبيات القوس العذراء، بنفس قافيتها وجرسها، فأبدع إبداع الشاعر نفسه، وجاء بأبيات كأروع ما تكون الأبيات، نكتفي بما ختم به قصيدته القصيرة التي أسماها "ذكرى" حيث قال:

ما هي قوْسٌ في يدِىْ نابلٍ .. إنما هي ألواحُ سِحرٍ نزَلْ

كَيْفَ يُرْضِيهِ شَجَاهَا؟ كَيْفَ يُصْغِي لبُكاَهَا؟

كَيْفَ هَزَّتْهُ فَتَاهَا؟ وَتَعالَى وَتَبَاهى؟

انظر إلى معاناته الشديدة المتواصلة الدؤوبة في قوله

كَيْفَ سَوَّاهَا.. وَسَوَّاهَا.. وَسَوَّاهَا فَقَامَتْ.. فَقَضَاهَا؟

ثم إذا به يخرج من صومعة حبه وولهه التي خلا فيها بالحبيبة عامين. عامام كاملان، يرعاها ويحنّ عليها ويعينها ويقومها ويسويها ويعدّلها لتكون خلقا من خلق القوس سويا!

خرج أخا الخضر من تلافيف غابته، حيث لقى حبيبته، إلى السوق بالحج، وما أدراك ما السوق، وزحمته وماديته وتشويشه على العقل الواعي

كَيْفَ وَاَفى مَوْسَمَ الَحج بِهَا؟.. مَاذَا دَهَاهَا؟

فهل تُقلت هذه الفاتنة الكامنة على كتف صاحبها من نظرات الغيرة والرغبة والسيطرة؟

أيُّ عَيْنٍ لَمَحَتْ سرَّهُمَا المُضْمَرَ؟.. بَلْ كَيْفَ رَآهَا؟

انبَرَى كَالصَّقْرِ يَنْقَضُّ إلَيهَا.. فَأَتَاهَا!!

مَسَّهَا ذُو لَهْفَة تَخْفى..، وَإنْ جَازَتْ مَدَاهَا

قَالَ: سُبْحَانَ الذيِ سَوَّى!! وأَفْدِي مَنْ بَرَاهَا

أَنْتَ..!! بِعْنِيهَا.. نَعَمْ إن شِئْتَ!! [تَعْسَا وَسَفَاهَا] [35]

هناك، بدأت ملحمة نفسية وصراع داخلي له ظاهر وباطن. ظاهره بيع وشراء ومساومة بين صاحب القوس وبين من يبتغي شراءها. وباطنها ذاك الرباط الوثيق والحبل المتين الذي هو أشبه بالحبل السريّ بين أمّ ووليدها، فيه اتصال الحياة بينهما كشريان القلب سواء بسواء.

المشترى يُساوم ويعرض ما يسيل له لعاب البائس الفقير

قَالَ : بِالتِّبْرِ.. وَبالفِضَة، بالخزِّ.. وَمَا شِئْتَ سِوَاهَا

(35) سفاها: دعاء عليه بخسران نفسه.

بِثِيَاب الخالِ [36].. بِالعَصْبِ المُوَشَّى.. أَتَرَاهَا؟
وأدِيمِ [37] الماعزِ المَقْرُوظِ.. أرْبَى مَنْ شَرَاهَا!

لكن نفس البائس الفقير لا تزال تحنّ لصنعتها، حبيبتها، رفيقة أنسها عامين كاملين، فتتأبى وتنكر على نفسها أن خطر البيع ببالها

كَيْفَ قَالَ الشَّيخُ؟!.. كَلاَّ! إنَّهَا بعْضِي وَالمَالُ؟. بَل المالُ فَدَاهَا
إنّها الفاقةُ والبُؤسُ!!.. نَعَمْ!.. هذا غِنًى!!.. كَلاَّ وشَاهَا [38]
بَلْ كَفَاني فَاقَةً.. لاَ!.. كَيْفَ أَنْساهَا؟.. وَأَنَّى؟! وَهَوَاهَا!

لكن، هل يترك البشر البشر ينعمون بحب أو مودة، إلا أن ينزغوا بين الحبيب وحبيبه، والرفيق ورفيقه؟ جمع من حولهم يرى المسامو، لكنه لا يرى الحب الكامن داخل نفس البائس الفقير. همهم، كهمّ البشر، تحقيق الربح الماديّ، ولو على حساب النفس الحية الشاعرة. فإذا بهم يتصايحون بالبائس الفقير، يدفعونه دفعا لبيع كل ما يملك من تلاد في دنياه .. قوسه العذراء، التي لم يمسّها غيره قبل.

لَمْ يَكَدْ.. حَتَّى رَأَى نَاسَا، وَهَمْساً، وَشِفَاهَا:
بَايِع الشَّيْخَ! أَخَاكَ الشَّيْخَ!.. قَدْ نِلتَ رِضَاهَا!!
إنَّهُ رِبْحٌ..! فَلاَ يُفلتْكَ!.. أَعطَى، واشْتَرَاهَا [39]!

وتمت الصفقة .. وكسب الشاري ما أراد، استقرت في يده القوس العذراء .. وخسر البلائس الفقير، رغم ما استقر في يديه من مال .. فإذا به صفر اليدين .. فبكى وناح واشتكى لكن، لات حين مناص

وَرَأْى كَفَّيِه صفْراً، وَرَأَى المَالَ... فَتَاهَا [40]

[36] ثياب الخال: ثياب رقيقة تصنع ببلدة الخال. العصب: برود كانت تصنع باليمن، يعصب غزلها ويجمع ثم يصبغ فيأتي موشىً لبقاء ماعصب منه أبيض لم يأخذه صبغ. والموشى: المختلط الألوان.

[37] الأديم: الجلد المدبوغ. المقروظ: المدبوغ بالقرظ. أربى: زاد ماله وارتفع على مايستحقه. شراها: باعها.

[38] شاه الوجه: صار قبيحاً مشوهاً تكرهه النفس.

[39] اشتراها: باعها.

[40] تاه: من التيه، وهو العجب والفرح.

لَمْحةً...، ثُمَّ تَجَلى الشَكُ عَنْهُ...، فَبَكَاهَا!

وَرَثَاها بدُمُوع، وَيحَهُ! كَيْفَ رَثَاهَا؟[1]

فَتَوَلَّى.. وَسَعِيرَ النَّارِ يُخْفِي وَلظَاهَا!

حَسْرَةٌ تُطْوَى عَلَى أَخْرَى..، فأَغْضَى... وَطَوَاهَا!

وكان الفراق ...

6) وماذا قبل اللقاء ..

لم يكن خروج أخا الخضر في طلب قوس أول أمرِه. بل خرج الرجل يطارد صيدا يقيم أوده، ويبيع منه ما يزيد عن حاجته، لتسير به الحياة كما تسير، بائسة لكنها قائمة، تحبو به، لا تكاد تسير.

وما كان لشاعرنا العملاق أن يتجاوز ذلك المشهد الذي إن دلّ على شئ فإنما يدل على مهارة ذلك الصائد ومعرفته بالطراد، ومواضعها وطبائعها معرفة وثيقة. فالفقر لا يمنع الموهبة، والعَوَز لا ينفي المهارة.

وها هي أبيات الشماخ تصف مراقبة ذلك القواس الماهر لحمار وحشي وأتنه، يريدان ورود الماء، لكن تمنعهما عوامل الخوف والتوجس من سهام الصائد، الذي ما يبغي إلا أن يضرج سهامه بدمائها

طوى ظِمْأها في بَيْضة ِالقيْظِ بَعْدَما	جرتْ في عنانِ الشعريين الأماعزُ[41]
فظلتْ بيمؤودٍ كأنَّ عيونهـــــــــا	إلى الشمس ـ هل تدنو ـ رُكيٌّ نَواكِزُ[42]
لَهُنَّ صَليلٌ ينتظـرنَ قضـــــــاءَهُ	بضاحي عذاةٍ أمرهُ وَ هوَ ضامــزُ[43]
فلما رأينَ الوردَ منهُ صريمــــة	مضينَ ولاقاهــنَّ خلٌّ مجــــــاوزُ[44]
ولمّا رأى الإظلامَ بادرَهُ بها كمــا	بادرَ الخَصْــــمُ اللجوجُ المُحـــافِزُ[45]
ويمَّمها من بطـنِ ذَرْوةٍ رُمَّـــــة	ومنْ دونها من رحرحانَ مفـــاوزُ[46]

---

[41] بيضة القيظ: عز الحرّ، اعترضت طريقها أسراب الماعز

[42] يمؤود: مكان فيه ظل اختبأت فيه الطرائد، ركيّ نواكز: أي ضعيفة غائرة لا ماء فيها، فعيونها ترقب الشمس في غروبها بتلك العيون تخشى ما سيأتي به الليل.

[43] الصليل: صوت الأمعاء تتقلص من العطش، بضاحي عذاة: أي مكان أمين بعيد عن العداة، وهو ضامزُ: أي هو يترقب أن يروى عطشه في مثل ذلك المكان وهو يتقرب ممسكا نفسه عن الشرب توجساً.

[44] صريمة: عزيمة قوية، الخلُ: الطريق الصعب الوعر بين الرمال، أي تجاوزا (الوحشي وأتنه) من ذلك الطريق الصعب، ليردا الماء

[45] فلما رأي الظلام خيم بسدوله، يبادرهما، كما يبادر الخصم اللجوج المتحفز بخصمه

[46] بطن ذروة: واد في ذروة بالقصيم، رحرحان، بلدة قريبة من ذروة، المفاوز: الصحارى

عليْها الدُّجى مُسْتَنْشَآتٍ كأنّهـــا هَوادِجُ مشدودٌ عليْهـــا الجَـزاجِزُ[47]
تفادى إذا استذْكـى عليها وتتّقــي كما تتقي الفحلَ المخاضُ الجوامزُ[48]
ومرتْ بأعلى ذي الأراكِ عشيــةً فصـــــدتْ وقد كادتْ بشرجٍ تجاوزُ[49]
وهمتْ بوردِ القنتينِ فصدهـــــا حوامي الكُراعِ والقُنـــــانُ اللواهِزُ[50]
وصدتْ صدوداً عن ذريعةِ عثْلبٍ ولا بَنيْ غِمـارٍ في الصّدورِ حزائزُ[51]
ولوْ ثَقِفاهــا ضُرَّجَتْ منْ دمائِها كمـــــا جُلّلت فيها القِرامَ الرجائزُ[52]

هذا ما وصف به الشمّاخ حال الطريدة التي تسعى لتحصل على شربة ماءٍ تقيم بها حياتها، وتُسكت بها صليل مِعاها، لكن الصائد والمعتدي من الوحش يصدانها عن ذلك، فتعيش حياة ضائقة مريرة متوجسة، لا ترى فيها راحة من كلل، ولا براءة من علل، حياة خوف مستمر مقيم، لا ينحسر عنها.

فكيف عالج شاعرنا العملاق هذا المشهد الملئ بالأحاسيس، النابع من قلب الطبيعة القاسية، التى لا ترحم إلا الأقوى والأقدر؟



[47] ووصف تلك المفاوز التي نشأ عليها الليل بخيامه بأنها تشبه الهوادج القائمة على صوف النوق.

[48] استُذكى عليها: اعتُدي عليها، المخاضُ الجوامز: أي تتقي المعتدى كما تتقي المتألمات من الحمل المسرعات بالفرار من الفحلِ، يريد أن ينزو عليها

[49] ذو الأراك وشرج: مواضع مر بها الحمار الوحشي وأتنه

[50] القنّة: أعلى الجبل أو التل، الكراع: الخيل والسلاح: واللواهز: المصوبة المعدّة للطعان ومغردها لهز والمعني أنّ الوحش أراد أن يرد الماء فصده ما رأي من ترصد الصيادين بكراعهم المعدة لصيدهم

[51] يقول: فاضطرت إلى الصدود عن ذاك المورد الذي هو حوض منكسرٌ وقد حزت في نفسها حزائز من الغيظ والألم

[52] يقول: واو أن الصيدين أصابوها بسهامهم، لضرّجت بدمائها، الرجائز: مفردها رجيزة وهي ما يزين به الهودج من صوف وشعر، القرام: فراش الهودج، فهو يقول أن الوجش المتضرج في دمه كأنه هودج في زينته من الشعر والصوف الأحمر.

القسم الثالث

أول ما يستلفت نظرنا هو أن الشيخ قد استبدل قافية الهاء الممدودة بقافية اللام المُسَكَّنة. فهل في هذا دلالة على شئ؟ نعم، فيما أرى. فإن الهاء الممدودة تعبر عن المُخاطب الغائب. والشاعر، في مقدمته التي لخّص فيها موقف المساومة والشراء، لم يروى تفاصيل الموقف بعد، فكأنه ليس متواجداً فيه، بل مُخبراً عنه من بعد. فلما أراد التفصيل، انتقل إلى اللام المُسَكَّنة من حيث فيها حسّ الجزم القاطع، فهو شاهد بعينه حاضر بنفسه، لا يحتاج ضمير الغائب بعد.

ها هو يستعرض ما مرّت به تلك الوحش وأتنه، من خوف ووجل، بحثا عن مورد ماء يستسقيان منه

رَأى حُمرَ الوَحْشِ، فَابْتَزَّهَا [53] بِلاَبِلَها منْ حَدِيث الوَجَلْ

رَآهَا ظَمَاءً إلَى مَوْرِدٍ، فَفَزَّعَها عَنْه خَوْفٌ مَثَلْ[54]

فَطَارتْ سِراعَا إلى غَيِره، بِعَدْوٍ تَضَرَّمَ حَتى اشتَعَل

فَلَم تَدْنُ حَتَّى رَأتْ صَائِدَين، فَصدَّتْ عَنِ المَوْتِ لما أَهَلّ

فَكَالبَرْقِ طَارَتْ إلى مَأمَن عَلَى ذِي الأرَاكَةِ [55] صافيِ النَّهَلْ

وليتأمل القارئ البيت الثاني والثالث، ليرى فيهما وصف الشوق لشربة الماء، ثم الفزع الذي أثبت الوحش في مكانها، تتوجس وترهف سمعها، ثم تقرر الإسراع هربا كأنها الطائر الفالت، حتى أنّ حافرها اتّقد كجذو نار مشتعل من سرعة العدو. يا لها من صورة حية تحمل المرء إلى تلك الغابة الملتفة الأشجار المتكاثفة الغصون، فكأنه حاضر شاهد، كشاعرنا، حاضر شاهد!

ثم إذا بالمصائب والمتاعب تزداد تراكما على الوحش وأتنه، فترى أخا الخضر، متداريا يتدسس لها، يحمل قوساً، يعرف طريقه إلى الطريدة لا يخطأه أبدا

لَوَاهَا [56] عَنِ الَّريِّ عِرْفَانَهَا أَخَا الخُضْرِ، عرْفَان مَن قَدْ عَقَلْ!

وَعَلَّمهاَ أَيْن تُكْوى اُلْجنُوب بنَارِ الطَّبِيبِ لِدَاءِ نَزَلْ!

---

[53] ابتزها: غلبها وغصبها وسلبها، والبلابل: وساوس القلب التي تضطرب فيه. الوجل: شدة الخوف.

[54] مثل: انتصب قائماً.

[55] ذو الأراكة: موضع ماء. النهل: أول الشرب عند ورد مناهل الماء.

[56] لواها: صرف وجوهها عن الشرب.

وَأَنَّ اَلْخَصَاصَةَ [57] قَوْسُ البَئِيسِ، إذا انْقَذفَ السَّهْمُ عَنْها قَتَلْ!

يُسَابِقُ مُسْتَنْهِضَاتِ [58] الفِرَارِ فَيَقْتُلُهَا قَبْلَ أَنْ تَنْتَقِلْ!

فَيُدرِكُهَا اَلموتُ مَغروسَة قَوائِمُها في الثَّرى..، لَمْ تَزُلْ!

وَعَرَّفَهَا أَنَّهُنَّ السِّهَامُ: زُرْقٌ تَلأَلأُ أَوْ تَشْتَعِلْ!

وَصَفْرَاءُ فَاقِعَة [59] ، أَذْكَرَتْ مَصَارِعَ آبَآئِهِن الأول

سِهَامٌ تَرَى مَقْتَلَ الحَائمَاتِ [60] ، وقَوسٌ تُطلُّ بِحتْفٍ أَظَلّْ!

رأت الوحش تلك السهام، التي طالما عرفتها "آبائهن الأولْ" فصرعتها في محلها، وأودتها "بحتف أظَلْ". فما كان منها إلا أن استنهضها الفرار، فأسرعت لائذة بالفرار قبل أن يدركها الموت، وقد علقا "قوائمها في الثرى".

تَخَّيرهَا بَائِسٌ، لَمْ يزل يُمَارِسُ أَمْثَالهَا مُذْ عَقَلْ

ثم هاك إضافة زادها شاعرنا العملاق على ما جاء به الشمَّاخ من وصفٍ للقواس وبؤسه وفقره، هي إتقانه لعمله "مُذْ عَقَلْ". إن القوس، التي سيصطنعها القواس، ليست عملاً مرسلاً يعانيه صاحبه أول مرة. بل هو ممارسة لازمته طويلا، حتى أصبحت بين يديه فنا متكاملا، يتجسد في عمل، كما بيّن في تقديمه للقصيدة. والفن والإتقان، إذا، لا يمنعهما بوس ولا فقر، بل قد يكونا حافزاً لا حاجزاً، في كثير من الأحوال.

ثم راح شاعرنا يصف نظرته الثاقبة لحجب الشجر التي كانت تحرسها "كرِماح الأسَلْ"، وكيف انغل بيديه ليقتلعها من حاميتها التي حجبتها سنين عددا، لتكون من نصيبه هو، البائس الفقير، كأنها جائزة أنعم الله عليه بعا بعد صبرٍ طويل. ولم لا، وهي التي نادته ليأخذ بها إلى محضنه ويشملها برعايته

فَنَادَتْه مِنْ كِنِّهَا [61] فَاسْتَجَابَ: لَبَّيْكِ! [يَاقَدَّها المُعتَدلْ]

---

[57] الخصاصة: الجوع والفقر والحاجة وسوء الحال. والبئيس: الفقير البائس الشديد البؤس.

[58] مستنهضات الفرار: التي تنهض به داعية الفرار.

[59] فاقعة: خالصة اللون مشرقة.

[60] الحائمات: التي تحوم الماء عطاشاً. الحتف: الهلاك. أظل: دنا وقرب، وألقى على الشيء ظله.

[61] الكن: المكان الذي يسترها ويحجبها عن العيون.

وإذا هو يتفنن في وصف عمله مع تلك "الغادة" التي صارت ملك يمينه، ليصقلها كما أراد:

رَأَى غَادَةَ نُشِّئَتْ في الـظِّلاَل، ظِلالِ النعيِم، فَصَلَّى[62] وهَلّ
فَنَادَتْه مِنْ كِنِّهَا [63] فَاسْتَجَابَ: لَبَّيْكِ! [يَاقَدَّها المُعتَدلْ]
سُتُورٌ مُهَدَّلَةٌ [64] دُونَهَا، وَحُرَّاسُها كَرِمَاحِ الأَسَلْ
يَبيسٌ [65] ورَطْبٌ وَذُو شَوكة فأَشَرطَها نَفْسَهُ.. لمُ يَبلْ
وَسلَّ لِسَاناً من الباتِرَاتِ... وَانَغلَّ [66] عاشِقُها اُلمخْتَبَلْ!!
يَحُتُّ اليَبِيسَ [67]، ويُرْدِي الرِّطَابَ، ويُغْمِضُ في ظُلَمات تُضِلْ
فَهَتَّكَ أَسْتَارَهَا بَارِزاً إلى الشَّمْسِ.. قد نَالَها! حَيَّهَلْ [68]!!
فَأَنْحَى [69] إِلَيْها الِّلسَان الحَدِيدَ يَبْرُقُ..، وَهْوَ خَصِيمٌ جَدِلْ
عَدُوٌّ شرِيس [70]، لَه سَطْوَةٌ بكُلِّ عَتِيٍ قَدِيِمِ الأَجَلْ
فَأَثْكل أُمّا غذَتْها النَّعيمَ، ورَاحَ بِهاَ وَهْوَ بَادِي الجَذَلْ [71]

ذاب القوّاس في الصبية الشجية الفتية، التي نادته فلبى "قدّها المعتدل"، فناجاها وعيناه تغدق عليها بالقُبل التي يغرق بها المُحبُ محبوبته بعد فراق طال أمده وأوجع كمده. غاب بعشق "ذات القدّ

[62] صلى: دعا وعظم الله وقدسه. هل: فرح وصاح.

[63] الكن: المكان الذي يسترها ويحجبها عن العيون.

[64] مهدلة: مرخاة متدلية. الأسل: نبات دقيق القضبان طويل شديد الاستواء.

[65] يبيس: يابس. ذو شوكة: ذو شوك. أشرطها نفسه: أعد لها نفسه، إما أن ينالها أو يهلك، غير مبال.

[66] انغل: تغلغل. المختبل: الذاهب العقل.

[67] يحت اليبيس: يستأصل اليابس ويرميه. ويردي: يسقط الرطب. ويغمض: يوغل.

[68] حيهل: كلمة تقال للحث والاستعجال.

[69] أنحى: وجه ناحيتها. اللسان الحديد: هو المبراة الحادة القاطعة. خصيم: شديد الخصومة. جدل: شديد اللدد في الخصومة.

[70] شريس: شديد الشراسة. عتي: طال تمرده وكبره. قديم الأجل: متقادم العمر.

[71] الجذل: الفرح الذي يهز الأعطاف.

المعتدل: عن الدنيا وعمن حوله، يبادلها بنظرات ويناورها بلفتات خفية غزلية، وهي توحى اليه مناجاة يهتز لها جسد العاشق، إذ يرى فيها حباً وإلفاً وغنىً.

فَلَمَّا أُطْمَأَنَّتْ على رَاحَتَيِه، وَعَيْنَاهُ تَسْتَرِقَانِ (72) القَبَلْ
رَقَاهَا، فأَحْيَى صَبَابَاتِها بتَعْوِيذَةٍ مِنْ خَفِيِّ الغَزَلْ
فَنَاجَتْه..، فَاهتَّز من صَبْوةٍ، وَمِن فَرَح بِالغِنَى المُقْتَبَلْ (73)
وَأَعْرَضَ عَنْ كُلّ ذِي خَلّةِ (74)، غِنىً بالّتيِ حَازَهَا... وَانْفَتَلْ...

ثم ها هو يبالغ في القرب منها وعدم التكلف معها إذ يجردها ثوب العناد، مما خشُن على جسدها

يُجَرِّدُهَا مِنْ ثِيَابِ العِنَادِ، وَمِنْ دِرْعِها الصَّعْبِ، حَتَّى تَذِلْ
فَلمَّا تَعَرَّتْ لَهُ حُرَّةً وَمَمْشُوقَةَ القدَّ رَيَّا (75)، جَفَلْ
وَسَبَّحَ لَمَّا اسْتَهَلَّتْ لَهُ، وَلاَنَ لَهُ ضِغْنُهَا (76)... وَابْتَهَلْ

7) الحب الضنين

ثم إذا بشاعرنا، يحكي قصة استهلكت منه عشرة أبيات، ما استهلكت من الشمّاخ إلا ثلاثة أبيات:

فلمّا اطمأنَّتْ في يديه رأى غِنى أحاطَ بهِ وازورَّ عمن يحاوز
فَمَظَّعها عاميْنِ ماءَ لِحائها و ينظرُ منها أيها هو غامزُ[77]
أقامَ الثِّقافُ والطريدةُ دَرْأَها كما قَوَّمتْ ضِغن الشَّموسِ المَهامِزُ[78]

(72) تسترق: تسرق خلسة مرة بعد مرة.
(73) المقتبل: الذي سوف يستقبله.
(74) الخلة: الصداقة التي تتخلل النفس.
(75) ريا: ناعمة يبرق فيها ماء الصفاء.
(76) ضغنها: عسرها والتواؤها وصعوبة انقيادها.
77 مظّعها: قطعها رَطبةً ثم وضعها بلحائها في الشمس حتى تجفّ ويبقى لحاؤها عليها ؛ لئلا تتصدَّع وتتشقَّق، غامز: متشقق
78 ضغن، التفلت والغضب، الشَّموس: النافرة الجامحة من الحيوان، المهامز: مفرها مهماز:حديدة في حذاء الراكب يقوم به مسار الركوبة

إذا بشاعرنا يصف اللوعة والوجد ونحول جسده وبءسه وصبره ومداومته علي رعايتها، حتى عرفت منه جدّ عشقه وحقيقة ولعه، فلانت وأطاعت. وهذا حال المحبة الحرّة الحَصَان، لا تلين ولا تطيع إلا بعد الاختبار، لا تستسلم لأول من يلامسها ويبادلها نظرات، لا تَعرِف، أفيها الرعاية والتذمم، أم الغواية والتهكم**!** فما أن تطمئن لحبيبها، حنّت في يديه، وذابت على كفيه. اسمعه يقول:

أَطَاعَتْهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ لَوَّعَتْهُ بَالوجْدِ عَامَيْنِ حَتَّى نَحلْ
يُزَلْزِلُهُ أَمَلٌ يَسْتَفِزُّ فِي قَيْدِ بُؤْسٍ يُمِيتُ الأَمَلْ
فَلَمَّا أَذَاقَتْهُ، إذْ ذَاقَهَا، هَوًى أَضمَرْتهُ لَهُ لَمْ يَزَلْ
تَبَّينَ إذْ رَامَهَا، حُرَّةً حَصَاناً (79)، تَعِفُّ فَلاَ تُبْتَذلْ
تَلِينُ لإنْبلِ عُشَّاقِهَا، وَتَأْبَى عَلَيْهِ إذَا مَا جَهِلْ (80)
فَأَغْضى حَيَاءً..، وَأَفْضَى بِهَا إلَى كَهْفِهِ خَاطِفًا، قدْ عَجِلْ
فَأَهْدَى لَهَا حِلْيةً صَاغَهَا بِكَفَّيْهِ، وَهْوَ الرَّفِيقُ العَمِلْ (81)
تَخَيَّرَهَا مِنْ حَشَا أَذْؤبٍ (82)، رَآهَا لَدى أَمِّها تَسْتظِلْ
أَعَدَّ لَهَا وَتَراً كَالشُّعاعِ حُرًّا.. عَلَى أَرْبَعٍ (83) قَدْ فُتِلْ
فَلَمَّا تَحَلتْ بِهِ، مَسَّهَا فَحَنَّتْ (84) حَنِينَ المَشُوقِ المُضِلْ

كمُلت تلك القطعة الفريدة المتقنة بين يديّ القواس، فأراد أن يمتحنها، وأرادت أن تعيد له، حبا ووفاءً، جزءاً مما بذلْ. ويعود شاعرنا ليصنع من القوس صنعاً جديداً، فالمحبة قد تحولت بعد عامين إلى أمٍ تحن لأولادها، تلك السهام التي جعل يضمها إلى صدر أمها، ثم يشدّ عليها، ويطلقها على طرائد هائمة. فإذا الأم الخنون تتألم كالثكلى على فراق ولدها، تباعا سراعاً، حتى أصاب من الطريدة ما أراد. فهل غضبت الأم؟ لا، رضت بما أوفت له من حق عليه، وعادت إلى أحضانه راضية مطمئنة.

(79) الحصان: الحرة الممتنعة التي تعف عن الريبة.

(80) جهل: استزله الشيطان واستخفه.

(81) العمل: الذي يحسن العمل والحركة فيما يعمل.

(82) أذؤب: (جمع ذئب).

(83) على أربع: أي على أربع طاقات. وهو أكرم للوتر وأقوى.

(84) حنت: رجعت صوتها ترجيع المشتاق أو الباكي. المضل: الذي قد ضل عنه أحبابه أو فارقوه، فهو ينشدهم.

اسمع الشمّاخ يقول:

و ذاق فأعطته من اللين جانبا ... كفى ولَهاً أن يغرق السهمَ حاجزُ
اذا أنبض الرامون عنها ترنمت ... ترنم ثكلى أوجعتها الجنائزُ

فأسبغ صورة الثكلى التي تنوح في جنازة ولدها، حين يفارقها السهم نحو الطريدة، وترنمها هنا هو ذلك الصوت الصادر عن الوتر حين يفارق السهم قوسه.

ثم اسمع شاعرنا يقول:

فَكَفَّلَهَا [85] مِنْ بَنِي أُمِّها صَغِيراً، تَرَدى بِرِيشٍ كَمَلْ
لَهُ صَلعَةٌ كَبَصِيصِ اللَّهِيبِ مِنْ جَمْرةٍ حَيَّةٍ تَشْتَعِلْ
فَضَمَّتْ عَلَيْه الَحشَا رَحْمَةً وَكَادَتْ تُكَلِّمُهُ.. لَوْ عَقَلْ!
فَجُنَّ جُنُونُ المُحبِّ الغَيُورِ..! فَأَنْبَضَ [86] عَنْها أَبِيٌّ بَطَلْ!
أرَنَّتْ [87] تُبَكِّي أَخَاهَا الصَّغِيرَ: وَيْحِي!! أَخِي!! وَيْلَهُ!! أَيْنَ ضَلّْ
فَظَلَّ يُفَجِّعُها [88] : أَنْ تَرى جَنَائِزَ إِخْوَتِها... وَا ثَكَلْ!
فأَعْرَضَ ظَبْيٌ [89] فَنَادَى بِهِ أَخُوهَا..، وَنَادَتْهُ: هَا! قَدْ قُتِل
وَقَفَّاهُ [90] ظَبْيٌ فَصَاحَتْ بِهِ..، فَخَارَتْ قَوَائِمُهُ.. ، فَاضْمَحَلّْ
فَآبَا.. يَسَائُلَهَا: هَلْ رَضِيتِ بثُكلِ الأَحَبَّةِ؟ قَالَتْ : أَجَلْ
فَبَاتَا بلَيْلِة مَعْشُوقَةٍ تُباذِلُ عَاشَقَها مَا سَأَلْ

قلت:

فراح يطارد ظبيا شروداً .. تجاوز سِرباً .. عدا .. فانفتلْ[91]

---

[85] كفلها: جعلها تكفله وتضمه إليها كالأم. الصغير من بني أمها: أخوها السهم.

[86] أنبض القوس: جذب وترها ثم أرسله: فيسمع له صوت كالبكاء.

[87] أرنت: صاحت صياح النائحة الحزينة.

[88] يفجعها: ينزل بها الفجيعة بعد الفجيعة.

[89] أعرض الظبي: أمكن الرامي من عرضه، أي جانبه.

[90] قفاه: تبعه وجاء بعده، اضمحل: سقط وانقشع.

[91] فانفتلْ: أي بعُد عن سربه

فشدّ بكفٍ عنيد الرجاء .. يُؤمل ردًّا لما قد بذلْ[92]

فوافت بحقٍ له مضمرٍ .. بكل ما قد حَبًا.. بل أقلْ[93]

وكانت ليلة تمازج فيها الحب والفرح والحزن والرجاء، وصفها الشمّاخ في بيتين

كـأَنَّ عَلَيْهَـا زَعْفَرَاناً تَميرُهُ *** خـوَازِنُ عَطـَّارٍ يَمـَان كَوَانِزُ[94]

إذَا سَقَط الأَنْدَاءُ، صِينَتْ وأُشْعِرتْ *** حَبِيرًا، وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيهَا المَعَاوِزُ

وشاعرنا، كالعادة، استطرد وتوسع في خياله عما بين القوس وقواسها فقال:

يُغَازِلُهَا، وَهْيَ مُصْفَرَّةٌ، عَلَيْها بَقِيَّةُ حُزْنٍ رَحَلْ

تُنَاسِمُهُ (95) عِطْرَها، وَالشَّذَا شَذَا زَعْفرانٍ عَتِيقِ الأَجَلْ

تَوَارَثْنَهُ الغِيدُ يَكْنِزْنَهُ لِزِينَتِهِنَّ، خَفِيَّ المَحَلّْ

فَسَاهَرهَا (96) يَزْدَهِيه الجَمَالُ وَيُسكِرُهُ العَرْفُ، حَتَّى ذَهَلْ

فَنَادَتْهُ : وَيْحَكَ! أَهَلَكْتَنِي! أَغِثْنِي... هَذَا النَّدَى قَدْ نَزَلْ

فَطَارَ إِلَى عَيْبَة (97) ضُمِّنَتْ حَرِيرًا مُوَشَّى نَقِيَّ الخَمَلْ

كَسَاهَا حَفِيّ بهَا عَاشِقٌ! إذَا أَفْرَطَ الحُبُّ يَوْمًا قَتَلْ

فَأَلْبَسَها الدِّفْءَ ضِنًّا بِها... وَبَاتَ قَرِيرًا (98).. عَلَيْه سَمَلْ!!

---

92 البيان مما أملتهما عليّ ظلال الموقف.

93 أي أتت له بالطريدة رداً لبعض جميله

94 مكانزُ: مكان للتخزين، والمعنى أن لها رائحة كأنها تستدرها من عطر عطار يمدها به من مستودعات عطره اليماني

(95) تناسمه: تهدي إليه نسيمها، والشذا: الرائحة الطيبة.

(96) ساهرها: بات معها ساهراً. يزدهيه: يستخف لبه العرف: الرائحة الطيبة يعرف بها صاحبها.

(97) العيبة: وعاء من أدم تحفظ فيه الثياب. الخمل: هدب القطيفة وزئبرها.

(98) قرير: قد أخذته قرة البرد، وهو أشده، والسمل: الثوب الخلق الدريس البالي.

هكذا مضت الليلة التي وفت له فيها بوعدها ووفي لها فيها بحرصه عليها ورعايتها.

ولكن.. هيهات أن تصفو لهما الحياة، رخية هانئة، دون أن يعترضها ما يعترض حياة الكائنات كلها، من محن وابتلاءات، تنجح فيها أو تفشل .. فماذا خبأ القدر، لقوّاسنا وقوسه؟

يتبع إن شاء الله القسم الرابع والأخير

د طارق عبد الحليم

7 يناير 2018 – 21 ربيع ثان 1439



القسم الرابع

8) النضوج والتألف

وقبل هذا، كانت ليلة لا مثلها ليلة، تناجيا فيها بعد أن قدّت له صكّ الوفاء، وقدّم اليها فرض الولاء، فحنى عليها، وألبسها ما يحفظ عليها متنها من قطر الندى، بعد ان انصرف عنها حزن فراق أحبتها، ألبسها ما يحفظها، ونام وعليه سمل من اللباس لا يعنيه!

كَـأَنَّ عَلَيْهَـا زَعْفَرَانَاً تَميرُهُ *** خـَوَازِنُ عَطـَّارٍ يَمـَان كَوَانِزُ

إذَا سَقَط الأَنْدَاءُ، صِينَتْ وأُشْعِرتْ *** حَبِيرًا، وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيهَا المَعَاوِزُ

فكان صدى شاعرنا:

يُغَازِلُهَا، وَهْيَ مُصْفَرَّةٌ، عَلَيْها بَقِيَّةُ حُزْنٍ رَحَلْ

تُنَاسِمُهُ [99] عِطْرَها، وَالشَّذَا شَذَا زَعْفَرانٍ عَتِيقِ الأَجَلْ

تَوَارَثْنَهُ الغِيدُ يَكْنِزْنَهُ لِزِينَتِهِنَّ، خَفِيَّ المَحَلّْ

فَسَاهَرهَا [100] يَزْدَهِيهِ الجَمَالُ وَيُسكِرُهُ العَرْفُ، حَتَّى ذَهَلْ

فَنَادَتْهُ : وَيْحَكَ! أَهَلَكْتَنِي! أَغِثْنِي... هَذَا النَّدَى قَدْ نَزَلْ

فَطَارَ إلَى عَيْبَةٍ [101] ضُمِّنَتْ حَرِيرًا مُوَشًّى نَقِيَّ الخَمَلْ

كَسَاهَا حَفِيّ بهَا عَاشِقٌ! إذَا أَفْرَطَ الحُبُّ يَوْمًا قَتَلْ

فَأَلْبَسَها الدِّفْءَ ضِنًّا بِها... وَبَاتَ قَرِيرًا [102].. عَلَيْه سَمَلْ!!

9) الموقف المهيب

ثم يأتي الموقف الرهيب المهيب، الذي تفتقت عنه عبقرية الشمّاخ، من قبل قرون خمسة عشر، فلتقفها خيال شاعرنا، فأضاف وفَصّل وجعله موقف يمثل جزءاً من حياة كلّ إنسان يمتلك شعورا بمعنى الحياة، حلوها ومرّها، فرحها وترحها، وما تأتي به حوادثها من تقلبات، تعترى حياة الناس، فتسلب غالياً،

(99) تناسمه: تهدي إليه نسيمها، والشذا: الرائحة الطيبة.

(100) ساهرها: بات معها ساهراً. يزدهيه: يستخف لبه العرف: الرائحة الطيبة يعرف بها صاحبها.

(101) العيبة: وعاء من أدم تحفظ فيه الثياب. الخمل: هدب القطيفة وزئبرها.

(102) قرير: قد أخذته قرة البرد، وهو أشده، والسمل: الثوب الخلق الدريس البالي.

وتُذبلُ وارفاً.. لكنها، في آخر الأمر، تُقدّم النهار مهما طال الليل، وتعرِضُ الأمل مهما تغلغل اليأس، عكس ما قصد الشمَّاخ كما سنرى.

توجه القوّاس إلى موسم الحج، حيث يبيع الناس ويشترون، وحيث يجتمع خبراء التحف و صيادو الفرص، يغتنمون حاجة المحتاج وفاقة الفقير. فما لبس أن رمقت عينا أحدهم تلك القوس العذراء في فتوتها وقوتها، بعينيّ نمر يتربص بفريسته

عرض ذلك المترصد المال والمتاع ما أذهل القوّاس البائس، المُفرط في الحاجة عن صنيعة يديه

فوافى بها أهلَ المواسمِ فانبرى   لها بيعٌ يغلي بها السومَ رائزُ[103]
فقال لهُ : هل تشتريها فإنها   تباعُ بما بيعَ التلادُ الحرائزُ[104]
فقال : إزارٌ شرعبيٌّ وأربعٌ   من السِّيَراءِ أو أَواقٍ نواجزُ[105]
ثمانٍ من الكيريِّ حمرٌ كأنها   من الجَمْر ما ذّكى من النارِ خابِزُ[106]
وبُردانِ من خالٍ وتسعون درهماً   ومعْ ذاكَ مقروظٌ من الجِلْد ماعِزُ[107]

وفي نسخة الشمّاخ، لم يكل الحوار أكثر من فكرة عابرة، دارت في خلده، ومعركة بين الحفاظ على تليده الجديد، أم أن يشريه بما يفيد في زمنه الماحل العنيد؟

فظلَّ يناجي نفسه وأميرها   أيأتي الذي يُعطى بها أم يُجاوزُ[108]

وجاءت أصوات الجمهور من حوله، تدفعه دفعا إلى أن يبع ما لديه، إذ هي صفقة، في نظر من لم يعاني صنعتها، جديرة بالاعتبار والقبول

فقالوا لهُ بايعْ أخاكَ ولا يَكُنْ   لكَ اليومَ عن رِبْحٍ من البيع لاهِزُ[109]

103 وافي: ذهب وتوجه، السوم: المساومة على بيع، رائزُ: مختبرٌ لمن يشترى

104 التلاد: المتاع ذو القيمة الغالية، الحرائز: المقتناة لقيمتها المضنون بها فهي حريزة

105 شرعبيّ: نوع من الأردية الطويلة، السّيَراء: نوع من البرود المطعمة بخطوط الحرير الأصفر، أواق ناجزة: أي دراهم حاضرة معجلة

106 الكيثري أو الكوري في بعض النُسخ، ما يصاغ من قطع لدي الصائغ، والخابز: صانع الخبز

107 بردان: رداءان، الخال: بردٌ يمني أحمر فيه خطوط سوداء، مقروظ، أي مدبوغ بأحسن دباغ.

108 ظل يسائل نفسه وذاته، أيأخذ الثمي ويبيع أم يتجاوز عن الصفقة وينساها.

109 لاهز: مانع يصدك عنه. وقالوا عائدة على حاضري السوق ممن شهدوا السوم.

فجاء القرار سريها، والبدل أسرع، ثم خيبة الأمل والحزن أسرع وأسرع، فنسحب القواس من الساحة، يجرّ أذيال الخيبة والحسرة، على ما معه من جنى الثمن الي باع به صنعة يديه.

فلما شراها[110] فاضتِ العينُ عبرةً وفي الصّدرِ حُزّازٌ من الوجْد حامِزُ[111]

هذا هو! تلك هي نهاية الموقف المهيب. استسلام الفقر للغنى، وبيع المحب لمن أحب بالمال، فالفقر ضعف لا قوة معه، والعوز قوة لا مقاومة له.

وبهذا البيت أنهى الشمّاخ رحلته مع القوس، وسجّل فراقه لها مهزوما مدحورا، فاقدا للأمل، عازفا عن الدنيا.

فماذا كان موقف شاعرنا في هذا الموقف العصيب الرهيب؟

10) الصراع النفسي عند محمود شاكر

كانت معالجة شاعرنا لذلك الموقف ذاته، مختلفة إلى حدٍ كبير عن معالجة الشمّاخ. فقد أوحى له الموقف العاصف بالمشاعر الإنسانية، بين التردد والإقدام، والأمل واليأس، والعزة والحاجة، والإقدام والإحجام، ما جعل هذه القصيدة جوهرة فريدة في نوعها بين فرائد الشعر التمثيلي، كما في مجنون ليلى لشوقي على سبيل المثال، إنما الفرق أن شاكر قد أقام ليلاه من غصن صنعته يداه، فكانت أقرب له من ليلى قيس!

تمادى شاعرنا في وصف العلاقة المتطاولة النامية بينه وبين قوسه، فهي ليست أياما قليلة العدد، بل زمن طويل، وليالٍ ذات عدد، يسير بها، بين طلول بادت، ومنازل زالت، لأقوام ما بقي منهم إلا خبر يتردد بين الناس في سمرْ.

صاحبته القوس، ليله ونهاره، في صعوده الجبل وانحداره للواد، بين الأدغال الكثيفة والأشجار المنيفة، يتحاكيا بينهما بسرٍ لا يفهمه عنهما أحدٌ، إلا هما. وهي كالطالبة بين يدي معلمها، يهديها حكمة الزمن، ويريها سنن تقلباته، وتقلبات الناس به، مؤكدا لها أنه ضنين بها أن يجعلها تحيا تلك الحياة المرة الشاقة التي يحياها الناس، **"فَعَرْشٌ يَخِرُّ، وَسَاعٍ يَقَرُّ** [(112)]، **وَسَاقٍ يَمِيلُ.. وَنَجْمٌ أَفَلْ!"**

وتجلّت الحكمة له، ولها، أنّ وفاء الأخلاء نادرٌ عزيز، وأنّ البعد عن الخلق مغنم لا مغرم، ففيهم الواشي وفيهم الحاسد وفيهم الخصم المقارع، فما لهم ولهذه المناوشات التي تملّ منها النفوس، لكنها لا تملّ من صحبة الخليل الودود.

---

[110] شراها أي باعها

[111] حزازٌ:قاطع للنفس يحزّها من الألم، حامزُ: ذو مذاق مرير حامض. دليل على عذاب النفس وتحسرها

(112) ساع يقر: بينا هو يسعى هنا وهناك، إذ ثبت مكانه. أفل: غاب وهوى.

تَمَتَّع دَهْرًا بأَيَّامِهَا وَلَيْلاَتِهَا نَاعِماً قِدْ ثَمِلْ [113]

يَرَاهَا، عَلَى بُؤْسِهِ، جَنَّة تَدَلَّتْ بِأَثْمَارِهَا، فَاسْتَظَلّْ

تُصَاحِبُهُ فِي هَجِير القِفَارِ، وَفِي ظُلَم الَّليْلِ أَنَّى نَزَلْ

فَيَحْرُسُهَا وَهْو فِي أَمْنَةٍ [114]، وَتَحْرُسُهُ فِي غَوَاشِي الوَجَلْ

يَجُوبُ الوِهادَ [115]، وَيَعلُو النِّجادَ، وَيَأْوِي الكَهُوفَ، وَيَرْقَى القُلَلْ

ويُفْضي إلَى مُسْتَقَّر الحُتُوفِ: فِي دَارِ نِمْرٍ، وَذِئْبٍ، وَصِلٌّ [116]

مَنَازِلَ عَادٍ، وَأَشْقى ثَمُودَ، وَحِمْيَرَ، وَالبَائِدَاتِ [117] الأُوَلْ

مَجَاهِلَ مَا إنْ بِهَا مِنْ أَنِيسٍ، وَلاَ رَسْم دَارٍ يُرَى أَوْ طَلَلْ

يُعَلِّمُهَا كَيْفَ كَانَ الزَّمَانُ، وَمَجْدُ القَدِيم، وَكَيْف انتَقَلْ!

وَكَيْفَ تَسَاقَى بِهَا الأَوَّلُونَ رَحِيقَ الحَيَاةِ وَخَمْرَ الأَمَلْ!

وَأَيْنَ الأَخِلاَّء كَانُوا بِها يَجُّرونَ ذَيْلَ الهَوَى وَالغَزَلْ!

وَملْكٌ تَعَالَى، وَطَاغٍ عَتَا، وَحُر أَبَى وَحَرِيصٌ غَفَلْ!

فَدَمْدَمَ [118] بَيْنَهُمُ صَارِخٌ: بَقَاء قَلِيلٌ!! وَدُنْيَا دُوَلْ!!

فَعَرْشٌ يَخِرُّ، وَسَاعٍ يَقَرُّ [119]، وَسَاقٍ يَمِيلُ.. وَنَجْمٌ أَفَلْ!!

زَهِدْتُ إلِيْك وَفَارَقْتُهُمْ أَخِلاَّءَ عَهْدِ الصِّبَا وَالجَذَلْ

فَنِعْمَ الصَّدِيقُ! وَنِعْمَ الخَلِيلُ وَنِعْمَ الأَنِيسُ.. وَنَعْمَ البَدَلْ!!

صَدِيقٌ [120] صَدَاقَتُها حُرَّةٌ، وَخِل خِلاَلَتُهَا لاَ تُمَلّْ

وَغَابَا مَعًا عَنْ عُيُونِ الخُطُوبِ، وَعَنْ كَلِّ وَاشٍ وَشى أَوْ عَذَلْ

---

(113) ثمل: أخذ فيه الشراب والسكر.

(114) أمنة: أمان من الخوف. غواشي الوجل: ما يغشاه من المخاوف.

(115) الوهاد: الأرض المنخفضة. النجاد: الأرض المرتفعة. القلل (جمع قلة): وهو رأس الجبل.

(116) الصل: حية تقتل إذا نهشت من ساعتها، لا تنفع فيها الرقية.

(117) البائدات الأول: طسم وجديس وجرهم، وما باد من العرب العاربة.

(118) الدمدمة: صوت مزعج يرجف على الناس ويطبق.

(119) ساع يقر: بينا هو يسعى هنا وهناك، إذ ثبت مكانه. أفل: غاب وهوى.

(120) الصديق، والخل: يقال للمذكر والمؤنث جميعا. والخلالة: الصداقة التي تتخلل النفوس.

وَعَنْ فِتْنَةٍ تُذْهِلُ العَاشِقَيْن، تُضِيءُ الدُّجَى لِدَبِيبِ المَلَلْ

لكن هل تصفو الدنيا لأحدٍ، أيّا كان؟ لا، ولن يكون، فهي " بَقَاء قَلِيلٌ!! وَدُنْيَا دُوَلْ!!".

احتاج الصياد إلى أن يوافي موسم الحج، يبتاع ما يحتاجه الحيّ من متاعٍ وإن قلّ وحاجات وإن ندرت. فحمل قوسه وراح في طريقه، بعد أن استشارها واسشارته، وهو لا يعلم ما يخبئ له القدر، ولها!

وَطَالَ الزَّمَانُ، فَحَنَّتْ بِهِ إلى الحَجّ دَاعِيَةٌ تَسْتَهِلّ [121]

أَذَانٌ مِنَ اللهِ! كَيْفَ القَرَارُ؟ وَأَيْنَ الفِرَارُ؟ وَكَيْفَ المَهَلْ [122]

تُرَدِّدُهُ البِيدُ بَيْنَ الفِجَاجِ، وَفَوْقَ الجِبَالِ، وَعِنْدَ السُّبُلْ

أَصَاخَ لَهُ، وَأصَاخَتْ لَهُ، وَلَبَّتْهُ فَامْتَثَلتْ، وَامْتَثَلْ

وَطَارَا معًا كَظِمَاءِ القَطَا [123]، إلَى مَوْرِدٍ زَاخِرٍ مُحْتَفِلْ

فَوَافى المَوَاسِم. فَاسْتَعْجَلتْ تُسَائِلُهُ: مَنْ أَرَى؟.. أَيْن ضَلْ؟

أَسَرَّ إلَيْها: أولاَكِ الحَجِيجُ!! فَلَبَّى لِرَبٍ تَعَالَى وَجَلْ

ثم ترى القواس حين دخل موطن الحجيج، وموضع السوق فيه، آتيا من باديته، حاملاً قوسه، يواجه جموعاً كثيفة من البشر، يسعى كلّ لحاجته، فهم منشغلون بأنفسهم عن أنفسهم، وهم الشاغل والمشغول.

وفي هذا الحجيج، ذي الضجيج والعجيج، إذا بذئب بشريّ يترصّد، يلمح "ذات القدّ المعتدل" فيتوله بها، ويرقبها بعيون كجمرة نار، أو كسيف بتّار، وهي ترى ما تراه، واجلة جافلة، خائفة تترقب. ولا يلبث إلا أن يتبع قواسها، فيبغته بأن يمسّ خليلته، وإذا بخليلها يتركها للذئب، يحملها على كفه، فترتعش راجفة منزعجة لا تكاد تصدق ما فعله.

وَنَادَتْهُ جَافِلَةً [124]: مَا تَرَى! أَجَذْوَة نَارٍ أَرَى أَمْ مُقَلْ؟

فَمَا كَادَ... حَتَّى رَأَى كَاسِرًا [125] تَقَاذَف مِن شَعَفَاتِ الجَبَلْ

---

(121) تستهل: ترفع الصوت إهلالا بالحج، وتلبية لله سبحانه.

(122) المهل: الاستنظار والتؤدة.

(123) ظماء القطا: القطا الوارد الماء. محتفل: فيه محافل الناس ومجامعهم

(124) جافلة: مذعورة تكاد ترتد. جذوة النار: الجمرة الملتهبة.

(125) الكاسر: الذي ضم جناحين وانقض: تقاذف: هوى على عجل. شعفات الجبل: رؤوسه وقممه.

يُدَانِي الخُطَا، وَهْوَ نَارٌ تَؤُجُّ [126]، وَيُبْدِي أَنَاةً تَكُفُّ العَجَلْ
وَمَدَّ يَدا لا تَرَاها العُيُونُ، أَخْفَى إذَا مَا سَرَتْ مِنْ أجَلْ
وَنَظْرَةَ عَيْنٍ لَهَا رَوْعَةٌ، تُخَالُ صَلِيلَ سُيُوفٍ تُسَلُّ
فَلَمَّا أَهَلَّ وَأَلْقَى السَّلاَمَ، وافتر عَنْ بَسْمِةِ المخْتَتِلْ [127]
وَقَالَ : أذِنْتَ؟! وَيُمنَى يَدَيْه تَمَسُّ أَنَامِلُهَا مَا سَأَلْ
رَأَى بَائسا مَالهُ حُرْمةٌ تَكُفُّ أَذىً عنه..، بُؤْسٌ وذُلْ
وَقَالَ : فَدَيْتُكَ! مَاذَا حَمَلتَ؟ وَمَاذَا تَنَكَّبْتَ [128] يَاذَا الرِجُلْ؟!
وَأَفْدِي الَّذِي قَدْ بَرَى عُودَهَا، وَقَوَّمَ مُنْآدَها [129]، وَاعْتَمَلْ!!
فَهَزَّتْهُ مَا كِرَةٌ، [130]لم يَزَلْ يَتِيهُ بِهَا السَّمْعُ، حَتَّى غَفَلْ
فَأَسْلمَهَا لِشَدِيد المِحَالِ [131]، ذَلِيقِ الِّلسَانِ، خَفِيِّ الحِيَلْ
فَلَمَّا تَرَامَتْ عَلَى رَاحَتَيْه، وَرَازَ [132] مَعَاطِفَهَا وَالثِّقَلْ
دَعَتْ: يَاخَلِيلِيَ! مَاذَا فَعَلْتَ؟! أَأَسْلَمْتَنِي؟! لِسَوَاكَ الهَبَلْ [133]!!
فَخَالَسَهَا [134] نَظْرَةً خَفَّضَتْ غَوَارِبَ جَأْشٍ غَلاَ بِالوَهَلْ

قال الشمّاخ

فَظَلَّ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَأمِيرِهَا *** أيَـأْتِي الَّذِي يُعْطى بِهـَا أَمْ يُجـَاوِزُ

---

(126) تؤج: تتلهب، ويسمع لتلهبها صوت، وهو أجيج النار.

(127) المختتل: المخادع الذي يطلب غفلة الصيد.

(128) تنكب القوس: وضعها على منكبه.

(129) المنآد: المعوج. اعتمل: جاهد في عملها.

(130) ماكرة: كلمة مكر.

(131) المحال: الكيد والمكر الشديد الخفي. ذليق اللسان: فصيح اللسان طليقه.

(132) راز الشيء: وضعه في كفه ليعرف ثقله وامتحنه، ومعاطف القوس: مقدار انعطافها إذا حناها وشد وترها.

(133) الهبل: ثكل الولد.

(134) خالسها: نظر إليها خلسة. خفضت: سكنت. الغوارب: أعالي الموج. الجأش: رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع. الوهل: الفزع الملحق بالجنون.

ثم بدأت المساومة. وراح الشاري يعرض ما لديه، يغري به حاحب الحاجة وشديد العوَز، ويتلاعب بما في نفسه من حبٍّ وتعلقٍ بقوسه التي زاملته مزاملة الخليلة الوفية، زمنا طويلا، وبادلته عشقا بعشق، ورعاية برعاية.

قال الشمّاخ

فَظَلَّ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَأمِيرِهَا *** أيَـأْتِي الَّذِي يُعْطى بِهـَا أَمْ يُجـَاوزُ

لكن شاعرنا راح، في أكثر من خمسة وثلاثين بيتا، يصف، بأدق وصف، اعتمال الأحاسيس وازدحام النفس بتلك المشاعر المتضاربة. قلق، واضطراب، وذهول، ودهشة، أستبدت بالخليلة المحبة، التي لا تكاد تُصدّق أن صاحبها تراوده نفسه في بيعها والتخلي عنه. وقواسّ ذاهل عن مشاعره، لا يرى ما يُكاد له، حالماً بغنى، وسد حاجات عرت عنها يداه زمن، فهو عن ندائها واستشفاعها بما كان بينهما في شُغُل.

وَقَالَ : لَكَ الخَيْرُ! فَدَّيْتَنِي بنَفْسِكَ!!

ـ بَارِي قِسِيّ!

ـ أَجَلْ!!

فَبِعْنِي إذَنْ!!

ـ هِيَ أغلَى عَلَّي، إذَا رُمْتَهَا، مِنْ تِـلاَدٍ [135] جـَلَلْ!

فَقَالَ : نَعَمْ! لَكَ عِنْدِي الرِّضـى، وَفَوْقَ الرِّضَـى!

ـ [وَيْلهُ مَنْ مُضِلْ!]

فَهَلْ تَشْتَرِيهَا [136] ؟!..

ـ نَعَمْ أَشْتَرِي!

ـ لَكَ الوَيْلُ مِثْلُك يَوْمًا بَخِلْ!

فَدَيْتُكَ!! أَعْطَيْتُ مَا تَشْتَهِيهِ!.. مَابِيَ فَقْرٌ ولا بِي بَخَلْ [137]!

فَنَادَتْهُ، وَيْحَكَ! هَذَا الَخِبيثُ! خُذْنِي اِلَيْكَ، وَدَعْ مَا بَذَلْ

[135] التلاد: المال الموروث الذي ولد عندك. الجلل: الجليل العظيم القدر.

[136] تشتريها: تبيعها.

[137] البخل (بفتحتين)، هو البخل.

فَبَاسَمَها [138] نَظْرَةً..، ثُمَّ رَدَّ إلَى الشَّيْخِ نَظْرَةَ سُخْرٍ مُطِلٌّ:
بكَمْ تَشْتَرِيها؟!..
فَصَاحَتْ بِهِ : حـذَارِ! حـذَارِ! دَهَـاكَ الخَبَلْ!!
لَهُ رَاحَةٌ نَضَحَتْ [139] مَكْرهَاَ عَلَي، فَدَع عَنْكَ! لاَ تُغْتَفَلْ
فَقَالَ : إزَارٌ مِنْ الشَّرْعَبِيِّ [140] وَأَرْبَعُ مِنْ سِيَرَاءِ الحُلَلْ
بُرُودٌ تَضِنُّ بِهِنَّ التِّجَارُ [141] إذَا رَامَهُنَّ مَلِيكٌ أَجَلّْ
وَمِنْ أَرْضِ قَيْصَرَ : حُمْرٌ ثَمَانٍ جَلاَهَا [142] الهِرَقْلِيُّ، مِثْلُ الشُّعَلْ
ثَمَان تُضيءُ عَليكَ الدُّجَى! إذا عَمِيَ النَّجْمُ، نعمَ البَدلْ
وَبُرْدَانِ من نَسْجِ خَالٍ [143]، أَشَف وَأَنْعَمُ مِنْ خَدِّ عَذْرَاءَ..، بَلْ
إذَا بُسِطَا َتْحَتَ شَمْسِ النَهارِ، فَالشَّمْسُ تَحْتَهُمَا..، لَيْسَ ظِلّْ
وَتِسْعُون مِثْلُ عُيُونِ الجَرَادِ..، بَرَّاقَةٌ كَغَدِيرِ [144] الوَشَلْ
كَمِرْآةِ حَسْنَاءَ مَفْتُونِةٍ، كَرَأْسِ سِنَانٍ حَدِيثٍ صُقِلْ
أَجَلْ..!! وَأَدِيمٌ [145] كَمِثْلِ الحَرِيرِ، يُطْوَى وَيُرْسَلُ مثْلَ الخَصَلْ
وَحَوْلَهُمَا زَفَرَاتُ الزِّحَامِ، وَأَذْنٌ تَمِيلُ، وَرَأْسٌ يُطِلّْ
وَغَمْغَمَةٌ [146]، وَحَدِيثٌ خَفِيٌ وَنَغْيَةُ زَارٍ، وآتٍ سَأَلْ
وَعَاشِقَةٌ في إسَارِ [147] السوَامِ!! وَعَاشِقُها في الشَرَاكِ أُحْتُبِلْ

---

[138] باسمها: نظر إليها نظرة سخر مبتسم.

[139] نضحت: فضت مكرها كالعرق، دع عنك: احذر، تغتفل: تؤخذ من غفلتك.

[140] الشرعبي: ثياب جياد سابغة. السيراء: برد فيه سيور يخالطها الحرير.

[141] التجار (جمع تاجر).

[142] جلاها: صقلها. الهرقلي: الرومي، نسبة إلى هرقل الملك.

[143] خال: مكان تضع فيه البرود الجيدة.

[144] الغدير: مكان يغادر السيل فيه بعض الماء. والوشل: الماء يتحلب من جبل أو صخرة، يقطر قليلا قليلا، لا يتصل قطره.

[145] الأديم: الجلد المدبوغ اللين. الخصل (جمع خصلة): وهي لفيفة من الشعر المجتمع.

[146] غمغمة: الكلام الذي لا يتبينه السامع، والنغية: كلمة ذات نغمة. الزاري: العائب المظهر للاحتقار.

[147] الإسار: الأسر. والسوام: المساومة في البيع. والشراك (جمع شرك): وهو حبالة الصائد يرتبك فيها الصيد. احتبل: وقع في حبالة

تُنَادِيه مَلْهُوفَة تَسْتَغِيثُ، ضَائَعَةُ الصَّوْتِ..، عَنْهَا شُغِلْ

هي الحاجة اللعينة تفرض نفسها على الإنسان، فتلتوي به عن الطريق السديد، طريق العزة والود والمحبة والوفاء والتضحية والاستعلاء، إلى طريق الرغبة والأنانية والمادية والانكفاء.

11) بداية الألم

وفي بيت واحد، يلخص الشمّاخ ما يحدث في هذا الموقف المهيب

فَقَالوا لـهُ : بَايِعْ أَخَـاكَ.. وَلا يَكُنْ *** لَكَ اليَوْمَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لاَهِزُ

ويبدع شاعرنا في أبيات تقارب الأربعين بيتا.

الجمع يتكاثر حول المتساومَيْن. الناس كعادتها، كلّ يدلى برأي لم يكالبه به أحد، يعرب به عن نفسه لو كان في محل البائع، يعكس حالته الذاتية، وكأنه يعين البائع والشاري! فمن يقول "بعْ"، ومن ينصح "لا تبعْ".

وتدور الدنيا بالقواس، فتجرى في نفسه مجادلة عنيفة بين دافع الغني الذليل والفقر العزيز، الإقدام والإحجام، التقدم والتقهقر، يتنازعه خاطران، أن كيف وأنّى له أن يتركها تضيع من بين يديه

أَجَلْ!! بَلْ هُوَ البؤسُ بَادٍ عَليَّ! فأَغْراهُ بي! وَيْحَهُ! مَا أَضَلّْ!!
يُسَاوِمُنِي المَالَ عَنهَا؟! نَعَمْ!.. إذَا لَبِسَ البُؤْسُ حُرًّا أَذَلّْ

لكنه شديد البؤس والفقر، لا يكاد يشعر به الناس، وتخترقه، إلا إن تحدّث!

إذَا مَا مَشَى تَزْدَرِيه العُيُونُ، وَإنْ قَالَ رُدّ كَأَنْ لَمْ يَقُلْ
نَعَمْ! إنَّهُ البُؤْسُ!! أَيْنَ المَفَرُّ مِنْ بَشَرٍ كَذِئَاب الجَبَلْ؟!

الصائد.

حتى يصل إلى قرار، وياله من قرار .. أن باعها .. نعم باعها، وهو لا يكاد يعي ما فعل، كأن من باع غيره لا هو، فكيف يبيع أحدٌ نفسه، وكميف تهون عليه .. لكنه باع، هل باع حقاً؟ نعم باع، ومضى الرجل بغنيمته، تاركاً المتاع، واختفى عن العيون.

[أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبّ السَمَاء وَالأرْض!.. مَاذَا يَقْولُ الرَّجُلْ؟!
أَجُنَّ؟! نَعَمْ.. لاَ!.. أَرَى سُورةً [148] مِنْ العَقْل، لاَخَلجَاتِ الخَبَلْ!
وَعَيْنَيْ صَفَاءٍ كَمَاء القلاَتَ [149]، وَعِرْنِينَ أَنْفٍ سَمَا وَاعتَدَلْ
وَجَبْهَةَ زَاك [150]، نَمَاهُ النَّعِيمُ في سُؤْدُدٍ وَسَرَاءٍ نَبُلْ
أَيُعْطِي بِهَا المَالَ؟! هَذَا الخَبَالُ! قَوْس وَمَالٌ كَهَذَا؟ ثُكِلْ!!
وَيَارَبِّ! يـارَبِّ! مَاذْا أَقَولُ؟.. أَقَولُ نَعَـمْ!.لا فَهَذَا خَطَلْ
أَبِيعُ!! وَكَيْفَ!.. لَقَدْ كَادَنِي [151] بِعَقْلِي هَذَا الخَبيثُ المِحْل
أُفَارِقُها! وَيْكَ [152]!! هَذَا السَّفَاهُ! قَوْسِيَ! كَلاَ! خَدَينِي وَخِلٌّ!!
أَجَلْ!! بَلْ هُوَ البؤْسُ بَادٍ عَليَّ! فأَغْراهُ بي! وَيْحَهُ! مَا أَضَلّْ!!
يُسَاوِمُنِي المَالَ عَنهَا؟! نَعَمْ!.. إذَا لَبِسَ البُؤْسُ حُرًّا أَذَلّْ
إذَا مَا مَشَى تَزْدَرِيه العُيُونُ، وَإنْ قَالَ رُدّ كَأَنْ لَمْ يَقُلْ
نَعَمْ! إنَّهُ البُؤْسُ!! أَيْنَ المَفَرُّ مِنْ بَشَرٍ كَذِئَاب الجَبَلْ؟!
ثَعَالبُ نُكْرٍ [153] تُجِيدُ النِّفَاقَ حَيْثُ تَرَى فُرْصةً تُهْتَبَلْ
كلاَبٌ مُعَوَّدَةٌ لِلهَوَانِ تُبَصْبِصُ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ بَذلْ
فَوَيْحِي مِنَ البُؤْسِ!.. وَيْلٌ لَهُمْ!!. أَرى المَالَ نُبْلاً يُعَلي السِّفَلْ [154]

---

[148] السورة المنزلة الرفيعة المشرفة الظاهرة. خلجات الخبل: مايتجاذب المخبول من الاضطراب، فتتَفكك أوصاله، ويتمايل يمنة ويسرة.

[149] القلات (جمع قلت، بسكون اللام): نقرة في الجبل يقطر فيها ماء واشل من سقف أو كهف، وهو أصفى ماء. والعرنين: الأنف تحت مجتمع الحاجبين، حيث يكون الشمم، وهو دليل على كرم الأصل.

[150] الزاكي: النابت في نعمة وخصب وكرم، والسراء: المروءة والسخاء والشرف.

[151] كاده بعقله: احتال عليه وغلب عقله. المحل: الشديد المكر والدهاء.

[152] ويك: مثل، ويلك، تعجب وتهديد، السفاه: السفه والطيش. الخدين: الصديق المصاحب. والخل: الصديق المتداخل المودة.

[153] النكر: الدهاء المنكر الخبيث: اهتبل الفرصة: اغتنمها وافترصها على غفلة.

[154] السفل (جمع سفلة): وهُم أراذل الناس وسقاطهم.

فَخُذْ مَا أَتَيتَ بِهِ..!! إِنَّه مَلِيك يُخَافُ، وَرَبٌ يُجَلّْ

وَسُبْحَانَ رَبّي! يَدِي! مَا يَدِي؟! بَرِيْثُ القِسِيِّ بها لم أَمَلْ!

حَبَاني [155] به فاطِرُ النَيِرّات وَبَاري النَّباتِ وَمُرْسِي الجَبَلْ!

وَأَوْدَعَهَا سِرَّهَا عَالِم خَبِيرٌ بَمكْنُونِها لَمْ يَزَلْ!

وَفِي المَالِ عَوْنٌ عَلى مِثْلِها! وَفِي البُؤْسِ هُونٌ [156]، وَذُلٌّ، وَقُلّْ!]

تَنَادَوْا بِهِ : أنْتَ؟! مَاذَا دَهَاكَ؟! مَالكَ يَا شَيْخُ؟! قُلْ يَا رَجُلْ!

وَآتٍ يُصِيحُ، وَكَفٌّ تُشِيرُ، وَصَوْتٌ أَجَشُّ [157]، وَصَوْتٌ يَصِلّْ!

وَطَنَّتْ مَسَامِعُهُ طَنَّةً..، وَزَاغَتْ نَوَاظِرُهُ وَاخْتُبِلْ

.. وَأَفْضَى إِلَيْهِ كَهَمْسِ المَرِيضِ أَشْفَى [158] عَلَى المَوْتِ مَا يَسْتَقِلّْ..

تُنَادِيه: وَيْحَكَ! وَيحِي!! هَلَكْتُ!! أَتَوْكَ بَقَاصِمَةٍ! وَآثَكَلْ!

تَلَفتَ يَصْغِي..، وَمِثْلُ الَّلهيبِ ضَوْضَاءُ وَعْوَعَةٍ [159] فِي زَجَلْ

فَهَذَا يُؤُجُّ [160]..، وهـذَا يَعَجُّ..، وَهَذَا يَخُورُ..، وَهَذَا صَهَلْ!

وَدَان يُسِرُّ..، وَدَاعٍ يَحُثُّ..، وَكَفٌّ تُرَبِّتُ: بِعْ يَا رَجُلْ!

لَقَدْ بَاعَ! بْع! بَاعَ! لاَ لَمْ يَبِعْ! غِنَى المالِ! وَيْحَكَ! بعْ يَا رَجْل!

[وَحَشْرَجَةُ [161] الموْتِ: خُذْنِي.. إِلِيكَ!!

ـ لَبّيْكِ!! لَبِّيْكِ!]

بِعْ يَا رَجُلْ!!

---

[155] حباه: أعطاه فأكرمه. فاطر النيرات: المبتدئ خلق الكواكب المنيرة. وباري النبات: خالقه.

[156] الهون: الهوان والخزي. والقل: القلة والنقص.

[157] أجش: فيه جشة أي: غلظ وبحة. صل الصوت: إذا خالطته حدة كأنها صوت حديد على الصفا. اختبل: أخذه الخبل، كالمجنون المضطرب.

[158] أشفى: أشرف. يستقل: ينهض.

[159] وعوعة: صوت مختلط كوعوعة الكلاب، والزجل: الجلبة كأصوات اللاعبين.

[160] يؤج:يصوت بكلام مرتفع سريع. ويعج: يصيح صياحاً عالياً كالهدير. ويخور: يصيح بصوت غليظ كخوار الثور. وصهل: أخرج صوتاً مبحوحاً كصهيل الخيل.

[161] الحشرجة: غرغرة الميت، وتردد نفسه.

[أَغِثْنِي!. أَجَلْ!]

بَاعَ! مَاذَا؟! أَبَـاعَ؟! نَعْم بَاعَ قَدْ بَـاعَ! حَقّاً فَعَلْ؟!

[أَغِثْنِي! أَغِثْنِي! نَعَمْ!]

قَدْ رَبِحْتَ!!.. بـُورِكَ مـَالُكَ!

أَيْنَ الرَّجـُلْ؟!

12) الألم عند محمود شاكر

قال الشمَّاخ نادما

فلما شراها[162] فاضتِ العينُ عبرةً   وفي الصّدرِ حُزّازٌ من الوجْد حامِزُ[163]

بكى الرجل بعد أن باع، وما أشد دمعة الرجل على نفسه، وقد استشعى وخزُ الألم يحز صدره، ومرارة الهزيمة تملأ حلقه.

ثم لا نعلم ما حدث بعد مع قواس الشمّاخ! فقد انتهت به القصة إلى هذا المشهد الحزين الأليم .. حيث ينتقل بعدها إلى ذكريات مضت مع قوسه الغالية، وما وهبته من إفزاع الطرتئد، وإسقاط الفرائس.

لكن الأمر عند شاعرنا الشيخ كان مختلفا جدّ الإختلاف. فالقواس قد تجمد في مكانه لا يكاد يُصدّق ما حدث، بل ينكره ويُكذبه، لولا أنه لم ير الرجل أمامه، وعرف أنه باعها حين لم يجد خليلته القوس بين يديه، فراح يردد كالتائه الذي ينادى على مُسعِفْه، فلا يجد إلا صدى صوته يؤكد له ضياع نفسه "بعتها بعتها بعتها،مراراً وتكراراً، إمعاناً في تعذيب نفسه بالحقيقة المرّة، وتأكيداً لها على أن الأمر قد تمّ وانقضى.

مَضَـى!.. أَيْنَا!.. لاَ، لَسْتُ أَدْرِي!.. مَتَـى؟

لَقَدْ بِعْتَ ؟!.. كـَلاّ وَكَـلاّ.. أَجَلْ!

لَقَدْ بِعْتَ! قَدْ بِعْتَ!

ـ كـَلاّ! كَذَبْتَ!

لَقَدْ بِعْتَ! قَدْ بـَـاعَ!

وَيْحِي! أَجـَلْ

[162] شراها أي باعها

[163] حزازٌ:قاطع للنفس يحزّها من الألم، حامزُ: ذو مذاق مرير حامض. دليل على عذاب النفس وتحسرها

لَقَدْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا.. جُزِيتُمْ بَخْيرٍ جَزَاء، أَجَلْ!!..
أَجَلْ بِعْتُهَا.. بِعْتُهَا. بِعْتُهَا!! أَجَلْ بِعْتُهَا!! لا، أَجَلْ لا، أَجَلْ
[أَجَلْ.. لاَ أَجَلْ بِعْتُهَا! بِعْتُهَا!. أَجَلْ بعتها! بِعْتُهَا!.. لاَ أَجَلْ

رأى انفضاض الناس من حوله، يهنأه بعضهم بنعم البدل، ويلومه البعض على فعلته، ويكذّب البعض ما يرى عليه من صورة الألم الممض، ويضحك منه البعض، ويُشفق عليه البعض الآخر. وهو لا يزال تائها، ذبيح الصوت غائم العينين، دامِيَ القلب، ينوء تحت هموم كالجبال فوق صدره، وهو قائم القاعد، كأنه قد شُلت أعضاءه فما بها من حراك، فكأنه قد قُدّ من ضخر، عديم الروح، فاقد للحياة.

وفَاضَتِ دُمُوعٌ كَمِثْلِ الحَمِيم [164]، لَذَّاعَةٌ، نَارُها تَسْتَهِلُّ
بُكَاء مِنَ الجَمْرِ جَمْرِ القُلُوبِ، أَرْسَلهَا لاَعِجٌ [165] مِنْ خَبَلْ
وَغَامَتْ بِعَيْنَيْهِ، وَاْسْتَنْزَفَتْ دَمَ القَلْبِ يَهْطِلُ فِيما هَطَل
وَخَانِقَةٌ ذَبَحَتْ صَوْتَهُ، وَهيضَ [166] اللِّسَانُ لَهَا وَاعْتقِلْ
وَأَغْضَى عَلى ذِلَّة مُطْرِقًا، عَلْيه مِنْ الهَمِّ مِثْلُ الجَبلْ
أَقَامَ..، وَمَا إنْ بِهِ مِنْ حَرَاكٍ، تَخَاذلُ [167] أَعَضَاؤُهُ كَالأَشَلّ
وَفِي أُذْنَيهِ ضَجِيجُ الزِّحَامِ، وَ«بِعْ بَاعَ، بعْ بَاعَ، بعْ يَا رَجُلْ»!
وَأَخْلَدَ فِي حَيْثُ طَارَ السوَامُ [168] بِمُهْجَتِهِ، كَأرُومٍ مَثَلْ
كَأَنْ صَخْرةٌ نَبَتَتْ، حَيْثُ قَامَ، تِمثَال حُزْنٍ صَلُودٍ [169] عُتُلْ
وَمِنْ حَوْلِهِ النَّاسُ مِثْلُ الدَّبَى [170] عِجَالاً تَنَزى، دَهَاهُنَّ طَلْ
فَمِنْ قَائِلٍ : فَازَ! رَدَّت عَلَيْهِ قَائِلَةٌ : لَيْتَهُ مَا فَعَلْ!

(164) الحميم: الماء الحار. تستهل: تنصب.
(165) لاعج: محرق. الخبل: اضطراب الجنون.
(166) هيص: انكسر وتدلى. واعتقل: حبس ومنع الكلام.
(167) تخاذل: تتخاذل، يخذل بعضها بعضاً.
(168) السوام: المساومة في البيع، والأروم: أصل الشجرة إذا ماتت وسقطت أغصانها. مثل: انتصب.
(169) صلود: صلب أملس. عتل: غليظ ثقيل ثابت.
(170) الدبى: الجراد قبل أن يطير، تنزى: تثب وتنقز. دهاه: غشيه وأصابه، والطل: المطر الخفيف.

وَمِنْ هَامِسٍ: وَيْحَهُ مَادَهَاهُ! وَمِنْ مُنْكِرٍ: كَيْفَ يَبْكِي الرَّجُلْ!

وَمِنْ ضَاحِكٍ كَرْكَرَتْ [171] ضَحْكَةٌ لَهُ مِنْ مَزُوحٍ خَبِيثٍ هَزَلْ

ومِنْ سَاخِرٍ قَالَ : يَا آ كِلاً! تَلَّبسَ فِي سَمْتِ [172] مِنْ قَدْ أُكِلْ!

وَمِنْ بَاسِطٍ كَفَهُ كَالمُعَزِّي وَهَيْنَمَةٍ [173] غَمْغَمَتَ لَمْ تُقَلْ

وَمِنْ مَشْفِقٍ سَاقَ إِشْفَاقَهُ وَوَلَّى، وَمُلْتَفِتٍ لَمْ يُوَلّ

وَسَالَت جُمُوعُهُمُ فِي الرِّمَالِ.. وَمَاتَ الوَغَى [174].. غَيْرَ حِسّ يَصِلّْ

كم بقيّ المسكين التَعِس على هذا الحال؟! طويلاً، يرقب الناس، كأنهم من حوله أشباحٌ، تتحرك في ضباب، ثم تذروها الرياح! رأي كائنات الأرض تتحرك، فتبدو له في أبشع صورٍ، ضباع تتجمع على صرائع، وحيات تتلوى في لهيب الشمس، ورؤوس لا تعرفها أآدمية أم هي "نَزيعُ البصلً" .. خيال هائمٌ تحركه رغبة ملحة في البعد عن الواقع الأليم، فيقذف به في تصورات بشعة مخيفة.

وَأَسْفَرَ [175] وَانْجَابَ دَاجِي السَّوَادِ عَنْ مُخْبتٍ خَاشِعٍ كَالمُصَلّْ

وَظَلّ طَوِيلاً.. لَهُ سَبْتَةٌ [176] وَإِطْرَاقَةٌ، وَأَسىً يَنْهَمِلّْ

أَفَاقَ وَقَيذاً [177]، بَطِيءَ الإِفَاقَةِ.. يَرْفَعُ مِنْ رَأْسِهِ كَالمُطِلّْ

وَقَلّبَ عَيْنِيهِ: ماذَا يَرى؟ وَأَيْنَ الزِّحَامُ؟ وَأيْنَ الرَّجُلْ!

رَأَى الأرْضَ تَمْشِي بِهِم كَالخَيَال، أَشَبْاحُهُمْ خُشُبٌ تَنْتَقِلْ

وَهَامٌ [178] مُحَّلقَةٌ رُجّفٌ، وأُخْرى بَدَتْ كَنَزِيعِ البَصَلْ

---

(171) كركر الضاحك: ردد الضحك.

(172) السمت: الهيئة.

(173) هينمة: الكلام الخفي كالدندنة. غمغمت: اختلطت ولم تتبين.

(174) الوغى: الصوت المتداخل كأصوات النحل المجتمع. يصل: يكون له صوت كأصوات أجواف الخيل إذا عطشت.

(175) أسفر: أشرق. انجاب: انكشف. المخبت: الخاشع المتضائل.

(176) سبتة: سكون وإطراق بلا حراك.

(177) الوقيذ: المريض الدنف المشفي على الهلاك.

(178) هام محلقة: رؤوس محلوقة. رجف (جمع راجف): ترتجف وتضطرب. نزيع البصل: المنزوع بجذوره.

وَأَغْربةٌ [179]: بَعْضُها جَاثِم يُحَرّك رَأْسًا، وَبَعْضٌ حَجَلْ
وَحَيَّاتُ وَادٍ، لِشَمْسِ الضُّحَى تُلوّي حَيَازَيمَها [180] والقُلَلْ
وَأَزْفَلَةٌ [181] مِنْ ضِبَاعِ الفَلاَة تَخْمَعُ مِنْ حَوْلِ قتْلَى هَمَلْ
وَهَنَّا وَهَنَّا ضِبَابٌ [182] مَرَقْن مِنْ كُلّ جُحْر لسَيْل حَفَلْ
وَثَوْبٌ يَطِيرُ بِلاَ لاَبِسٍ، يَمِيلُ مَعَ الرّيحِ أَنَّى تَمِلْ

وبدأت الحياة تدب في أوصاله، بطيئة مؤلمة، ورأت عينيه، رأي الحقيقة لا الخيال، أن الجمع قد انفض، فاستسلم، وتنهد زفرات كأنها جمر نار. فظلّ يصارع نفسه محاولاً أن يفقك أسها من قيود الخيال الممض الذي وقع في أسره طويلاً. وراح قلبه يدق مرة أخرى في صدره كأنه أجنحة حمام مُبتلّ ينتفض! وراحت أقدامه تحاول الحركة وتعاني من ثقل عليها كأها مثبتة في الأرض من ثقل رشاء تنزعها من بشر عميق القرار. ويحملق يائسا في كفيه، لتتمل له الحقيقة المرة .. نعم بعتها! وها هو حال الدنيا مع من نحب وما نحب، لا تثبت بنا ولا تثبتهم لنا، بل حالها دوان التقلب وتداول الأحداث "بَقَاءٌ قَلِيلٌ وَدُنْيَا دُوَلْ!"

تَمَطّى بِهِ البعْثُ مِنْ نَعْسَةٍ، ومِنْ سِنة كَفُتُورِ الكَسَلْ
وَدَبَّتْ إلِيْه بَقَايَا الحَياةِ، فَرَقَّعَ أَعْطَافَهُ [183] وَاعْتَدَلْ
وَظَلَّ يُنَازِعُ كَبْلَ [184] الذُّهُول وَيَحْتَلِجُ النَّفْسَ مِنْ أَسْرِ غُلْ
كَنَاشِطِ [185] ثِقْلٍ طَوِيلِ الرِّشَاءِ مِنْ هُوّة في حَضِيض الجَبَلْ
رُوَيْدَا رُوَيْدَا فَثابَتْ لَهُ مُلَجْلَجَةً [186] يَعْتَرِيهَا هَلَلْ
وَمِثْلَ الحَمَامَة بَيْنَ الضّلُوعِ قَدْ انْتَفَضَتْ مِنْ غَواشِي بَلَلْ

---

[179] أغربة (جمع غراب).

[180] الحيازيم (جمع حيزوم): وهو ما اكتنف الحلقوم والقلل: الرؤوس، والحية تفعل ذلك وهي تتشمس.

[181] أزفلة: الجماعة تأتي مسرعة. والضباع: من لئام الحيوان. تخمع: تعرج. همل: مهملة ملقاة.

[182] الضباب تخرج من جحورها إذا دهمها السيل.

[183] الأعطاف (جمع عطف): وهو الجانب، من الرأس إلى الورك.

[184] الكبل: القيد الضخم الثقيل. والغل: القيد الذي يجمع الأيدي إلى الأعناق.

[185] الناشط: الجاذب الدلو من البئر. والرشاء: حبل الدلو الطويل.

[186] ملجلجة: مترددة ثقيلة لاتكاد تخرج أو تدخل: هلل: فزع وفرق ونكوص.

يُقَلِّبُ جمْجُمَةً، خَالهَا كَجُلمُودِ صَخْرٍ رَكينٍ [187] حَمَلْ
فَلأياً بِلأْيٍ [188] وَآبَتْ لَهُ مُبَعْثَرَة مِنْ أَقَاصِي العِلَلْ
وَنَفَّسَ عَنْ صَدْرِهِ زَفْرَةً، وَخَامَرَهُ [189] البُرْءُ حَتَّى أَبَلّْ
أَحَسَّ بكَالجَمْر فِي رَاحَتَيْه: سَعِير تَوَقّد!! مَاذَا احْتَمَل؟
وَيَبْسُطُ كَفيهِ: مَاذَا أَرى جَوَابٌ حَثِيثٌ وَلوْ لَمْ يَسَلْ!!
عُيُونٌ تُحَمْلِقُ فِي وَجْهِه، مِنْ الخُبْثِ تَزْهَرُ [190] أَوْ تأتَكِلْ!!
[أَجَلْ بِعْتُهَا! بِعْتُهَا بِعْتُهَا!.. بَقَاءٌ قَلِيلٌ وَدُنْيَا دُوَلْ!]

13) وتُشرق شمس الأمل الوليد!

ماذا فعل القواس بثروته الجديدة، عند شاعرنا الشيخ؟ رأي أنها بقايا ذكريات ستقض مضجعه ما رآها ماثلة أمامه، تذكره بما كان منه من نب الرعاية وخيانة الأمانة. رأي أنها ستكون على جلده مكواة حارقة كلما مسته، كأنها تُمضى عليه حدّا لزمه من إثم قارفه. رأي أن دراهما جمر نار سيحرق كفيه كلما تناوله ليتداوله. فما كان منه إلا أن نبذها وراءه وأولاها ظهره .. ومضى لحال سبيله! مضى وهو يرفع كفيه ناظراً فيهما لعله يجد أثراً مما حملت منذ قريب. لكنه بدا وكأنه يقرأ كفه ذاهلا عما حوله، مأخوذا من عجب ما يرى أشباحاَ لماض أليم ينزف منه القلب دماً، وقد جفّ جلدها وتشققت بشرتها مما عانى سنوات الرعاية والتذمم.

وَأَلْقَى الغَنيِ لِلثَّرى! وَانَتَحَى [191] وَنفَّض كَفَيْهِ: [حَسْبي! أَجَلْ]
وَأَلْقَى إلَى غَالِيَاتَ الثِّيَابِ وَالبَزِّ نَظْرَةَ لاَ مُحْتَفَلْ!
وَوَلى كَئيبًا ذَلِيلَ الخُطَا، بَعيدَ الأَنَاةِ، خَفَّيِ الغُلَلْ [192]!
وَأَوْغل فِي مُضْمرَاتِ [193] الغُيُوبِ يَطْوِي البَلاَبلَ طَيَّ السِّجِلّْ

(187) ركين: عالي الأركان ثقيل.

(188) لأيا بلأي: بعد مشقة وجهد وإبطاء واحتباس.

(189) خامره: غشي نفسه. أبل: برأ من مرضه وأفاق.

(190) تزهر: تتلألأ. تأتكل: تتوهج كالنار إذا اشتد لهبها، وأكل بعضها بعضا.

(191) انتحى: اعتزل ناحية.

(192) الغلل (جمع غلة): وهي حرارة الحزن.

(193) المضمرات: البعيدة التي يخفى مكانها، والغيوب (جمع غيب): هو الأرض المطمئنة، التي يغيب فيها سالكها، والبلابل: قلقات

أَرَادَ لِيَنْسَى وَبَيْنَ الضُّلوُعِ نَوَافِذ مِنْ ذِكَرٍ تَنْتَضِلْ
فَأَحْيَتْ صَبَابتَهُ، وَالجِرَاحُ دِمَاءٌ مُفَزَّعَةٌ لَمْ تَسِلْ
تُرِيهِ الرُّؤَى وَهْوَ حَيُّ النَّهارِ، وَتسْرِي بِهِ وَهْوَ لَمْ يَنْتَقِلْ
وَيَبْسُطُ كَفَّيه مُسْتَغْرِقًا، فَتَحْسَبُهُ قَارِئًا قَدْ ذَهِلْ
يَرَى نِعْمَةَ لَبِسَتْ نِقْمةً، وَنُورًا تَدَجَّى [194]، وَسِحْرا بَطَلْ
وَآيَتَهُ [195] عَاثَ فِيهَا الشُّحُوبُ فَأَنكَرَ مِنْ لَوْنِها مَا نَصَلْ
وَأسَرارَهَا [196] فَضَّهَا طَائف لَهُ سَطْوَة وأذى حَيْثُ حَلْ
وَسَحْقَ [197] غِشَاءِ عَلَى أَعْظُمُ، تَهَّتَك مثْلَ الأدِيم النَّغِلْ
وَمَستْ أَنامِلَهُ رَجْفَةٌ، تَسَاقَطَ عَنَها سَنَاهَا [198] وَزَل

وإذا بيد الرحمة الإلهية تمتد لتنزعه من يأسه الممض، وتكتنفه بأمل هو أحوج الناس اليه. وإذا به يرى بعين دَربةٍ ثاقبة، في ثناياً أدغال وأشجار متكاثفة، عروس جديد، مختبئة عن العيون، في ظلام دامس، أومض فيه الضوء لحظة مانت كافية لتلك العين الدَرِبَة أن تلتقط صورتها، واستبان له في حالك الظلمة قدْرَها. وإذا به "رَأى غَادَةً نُشّئَتْ فِي الظِّلاَلِ، ظِلاَل النَّعِيم". وإذا بصاحبنا القوّاس يجري في عروقه ماء الحياة مرة أخرى. وإذا به يُدرك، أنّ ما فعله مع خليلته الأولى، لا يزال ممكنا مع غيرها، ممن شابهها قدّا وقدراً. ولم لا، والصنعة صنعة يديه، والإتقان في عمله فنه الذي يلازمه فيما يُنتج، بلا اصطناع ولا تكلّف.

ونادته الخليلة الجدية، أن أفقْ، وعدْ لرَشدِك، واسجمع نفسك التي شتتها ما آل اليه حال أخت الغصونِ الضائعة، التي صارت بين يدي ثعلب محتال، تلاقي قدرها المرسوم.

ويتردد صدى وحيها اليه في عقله، فإذا هو صدق وعدل!

صَدَقْتِ! صَدَقْتِ!. وَأَيْنَ الشبَابُ؟ وَأَيْنَ الوَلْوعُ؟ وَأَيْنَ الأَمَلْ
صَدَقْتِ صَدَقْتِ!!.. نَعْمَ قَدْ صَدَقْتِ! وَسِر يَدَيْك كَأنْ لَمْ يَزَلْ

الهموم. والسجل: الكتاب أوالصك الذي يطوى. نوافذ: ماضيات، كالسهام تنفذ في النفس . تفتضل: تترامى وتختصم.

[194] تدجى: لبسه الظلام.

[195] الآية: العلامة العجيبة، وهي يده. نصل: طفىء لونها وذهب.

[196] أسرار الكف: خطوطها التي تدل على المغيب من أسرارها.

[197] السحق: البالي المنسحق. تهتك: تخرق وتساقط. الأديم: الجلد المدبوغ. النغل: الذي فسد دباغه فتفتت وترفت.

[198] السنا: الضوء العالي.

وإذا بباب الأمل يُفتح أمامه على مصراعيه، وإذا بيديه تتلهفان لعمل الفن، أو فن العمل المتقَن، مرة أخرى، ليرى من نتاجهما ما يحييه من جديد، بفضل ربٍّ أجلٌّ.

وَأَفْضَى بَنظْرَتِهِ نَافِذًا إلى غَيْبِ مَاضٍ بَهِيمٍ [199] السُبُل
تَلاَوَذُ [200] أَشباحُهُ، كَالذَّلِيلِ، بِلُغْزٍ نَخِيلٍ، وَدَاجِي دَغَلْ
وَأَسْوِدَةً خَطِفَتْ فِي الظلاَم هَارِبة مِنْ صَيُودٍ خَتَلْ
وَطْيرًا مُرَوَّعَةً أَجْفَلَت، وَآمِنَ طَيْرٍ وَدِيعٍ هَدَلْ [201]
وَشقَّت لَهُ السُّدَفَ [202] الغَاشِيَاتِ حَسْنَاء ضالٍ عَلَيهْا الحُلَلْ
أَضَاءَ الظَلاَمُ لَهَا بَغْتَةً، وَقَوَّضَ خَيْمتَهُ وَأُرْتَحَل
أَطَلَّتْ لَهُ مِنْ خِلاَل الغُصُونِ عَذْرَاء مَكْنُونَة لَمْ تُنَلْ
«رَأى غَادَةً نُشِّئَتْ فِي الظِّلاَلِ، ظِلاَل النَّعِيم»، عَلَيْهَا الكللْ [203]
عَروسٌ تَمَايَلُ مُخْتَالَةً، تُمِيتُ بدَلّ، وَتُحْيِي بِدَلَ
وَنَادَتْه، فَارَتـدَّ مُسْتَوفِزًا [204] بَجُرْحٍ تَلَظى وَلمْ يَنْدمِلْ:
أفِق! قَدْ أَفَاقَ بِها العَاشِقُون قَبْلَكَ، بَعْدَ أَسىً قَدْ قَتَلْ!
أَفِقْ! يَا خَلِيلِي! أفِق! لاَ تَكُنْ حَلِيف الهُمُومِ، صَرَيع العِلَلْ
فَهَذَا الزَّمَانُ، وَهَذِي الحيَاةُ، عَلّمْتِنيها قَدِيمًا: دُوَلْ!!
أَفِقْ! لاَ فَقَدْتُكَ! مَاذَا دَهَاكَ؟! تَمَّتعْ! تَمَتَّع! بِهَا! لاَ تَبلْ!
بِصُنْع يديْك تَرَاني لَدَيْكَ، فِي قَد أخْتِي! وَنِعْمَ البَدَلْ!

---

(199) بهيم: مظلم لا ضوء فيه، ولا منفذ لبصر.

(200) تلاوذ: تدور كأنها تطلب ماتلوذ به. اللغز: الطريق الملتوي المشكل يضل سالكه. الداجي: الساتر الذي يلبس ما فيه ويستره. والدغل: الشجر الملتف المشتبك النبت. أسودة (جمع سواد): وهو شخص الشيء، لأنه يرى من بعيد أسود. خطفت: تسرع كالشعاع الخاطف.

(201) هدل: غنى غناء الحمام.

(202) السدف: (جمع سدفة): ظلمة مختلطة بضوء يشوبها. الضال: السدر ينبت في السهول. تسوى من قضبانه السهام.

(203) الكلل (جمع كلة): وهي الستر الرقيق، كالذي تكون فيه العروس.

(204) المستوفز: هو القاعد إذا استقل على رجليه يتهيأ للقيام، ولما يستو قائما بعد.

صَدَقْتِ! صَدَقْتِ!. وَأَيْنَ الشبَابُ؟ وَأَيْنَ الوَلْوعُ؟ وَأَيْنَ الأَمَلْ

صَدَقْتِ صَدَقْتِ!!.. نَعْمَ قَدْ صَدَقْتِ! وَسِر يَدَيْك كَأنْ لَمْ يَزَلْ

حَبَاكَ بِهِ فَاطِر النَيِّراتِ، وَبَارِي النَّبَاتِ، وَمَرْسِي الجَبلْ

فَقُمْ! وَاسْتَهِلَّ (205)، وَسَبِّحْ لَهُ! وَلبّ لِرَبٍ تَعالىَ وَجَلّْ

14) الخاتمة

بهذه النهاية المبدعة، التي تعطسى الفرق الشاسع بين معالجة الشّماخ لقصة القوس، معالجة قصصية تهدف إلى التصوير أكثر من التوجيه والتعبير،ومعالجة الشيخ شاكر، الذي لم يدع الفرصة اللائحة في تلك القصة العاطفية الآسرة للقلوب، أن يوجهها لصالح البشر، ويعبر بها عن الأمل المتجدد من ثنايا الألم

ونحن، في محنتنا الآنية، محنة الأمة العربية الإسلامية، أحوج ما نكون لهذا الشعور بالأمل، فقد طال علينا زمن الألم وتطاول مداه، وتعمقت جراحاته وعمت بلاياه. ما أحوجنا إلى أن نرى ما يمكنه العمل المتقَن في كلّ فنّ نتناوله، سلماً وحرباً، وأنّآنعي تماما أنه " بَقَاء قَلِيلٌ!! وَدُنْيَا دُوَلْ!"[206].

د طارق عبد الحليم

11 يناير 2018 – 24 ربيع ثان 1439



(205) استهل: رفع صوته بالإهلال والتلبية لله سبحانه.

206 يمكن للقارئ الكريم أن يرجع إلى دراسات عديدة دونها كثير من أهل اللغة والأدب في "القوس العذراء" وفي "قصيدة الشماخ". لكني أوجه النظر إلى ذلك السفر الممتع "دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين" الذي اطلعت عليه في عام 1983، بعد عام من صدوره، وفيه العديد من الدراسات المهمة أخص بالذكر منها دراسة الأديب العالم د محمد مصطفى هدّارة، والأديب إحسان عباس. كذلك دراسة مستقلة للفنان الأديب الأستاذ إسماعيل أحمد الأستاذ بجامعة اليرموك، عمان، عنوانها "إرادة الحياة في النفس الطامحة: قراءة في زائية الشمَّاخ" والتي نُشرت في مجلة جامعة الملكة سعود عام 1420 — 1999، وغيرهما كثير.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تعليق وإضافة على بحث "دراسة مقارنة في الشعر العربي"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

حكي لي ابنٌ شاب أن بعض الشباب، الذي انتكس حاله واتخذ من الجهل رداءه وأثماله، ممن فهم السلف الصالح بفهم أعجميّ، مع إعتقاده أن لسانه عربي ، فإذا هو مقطوع اللسان، سالقط عن رتبة من يتحدث به، قديما أو حديثاً، ويتصور أن الحياة السلفية جافة معدومة الشعور، ضائعة الخيال، يتلمس التحريم، ثم التكفير في كل لفظة يحسبها "غير لائقة" بطنه الخائب، حدثني الشاب عن مناقشات دارت بينهم في أنّ بحثي "دراسة مقارنة في الشعر العربي" فيه ألفاظ غير لائقة، أو نابية أو شئ من هذا القبيل. وهؤلاء أشفق عليهم أكثر مما ألومهم، فقد أخذوا ثقافتهم من أدب أسماعيل كلم، وكتابات أحمد أبو فرحة!!

أذكر هؤلاء الشباب وأنصحهم أن يقرؤوا السيرة بعين "آدمية"، تعى أن للحياة أوجه شتى، وأن رسول الله في شريعته وتبيانه لها في سننه بوسطها الأعدل، قد ضرب لنا الأمثلة التي نحتذيها، عوضا عن الإفراط والتفريط. فقد حذرنا رب العالمين من إتباع الشعراء في تجاوزاتهم في "التشبيب بالمرأة" أي وصفها في حالات مخزية كما قال امرؤ القيس

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ *فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ* ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ.

إِذَا مَا بَكَى مِنْ خَلْفِهَا انْصَرَفَتْ لَهُ بِشَقٍّ،وتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ

ولا داع للشرح هنا!

كما نهانا الله سبحانه عن إتباعهم في القذف والهجاء وكلّ ما يشين الخلق. لكن السنة بينت حدود ذلك، وما هو مقبول منه ما هو مرفوض، من حيث أن الكليّ القرآني يكون له طرفان، فتأتي السنة فتبين ما هو من هذا وما هو من ذاك، حتى لا تكون الشريعة واقعة دائما إما في إفراط وإما في تفريط. وهذا أمر يدركه العلماء.

ومن ذلك ما هي حدود الشعر المقبول الذي قد يأتي فيه غزل عفيف، وما هي حدود العفة؟ بين ذلك رسول الله ﷺ بيانا بالفعل والإقرار، حين استمع إلى قصيدة كعب بن زهير التي ألقاها عليه، في مسجده ﷺ بعد صلاة الفجر، معتذراً ومادحاً، ولم يعلق عليها بنهي أو تأنيب. والتي بدأها على عادة شعراء العرب في الجاهلية وشطر من العصر الإسلامي في عهد الخلفاء والدولة الأموية عامة، بغزل يصف فيه محبوبته "سعاد"، التي هي غالباً اسم وهميّ من خيال الشاعر، يلبسه ثوب الحياة، فيفرغ فيه مشاعر البدوي في البكاء على الألال ودكرى أيام الحب والمودة. بدأ كعب رضي الله عنه قصيدته بعشرة أبيات كاملة، وصف فيها "سعاد" وحبه لها بأرق الكلمات، فقال إنها غضيضة الطرف من الحياء، قدّها أغن، ولها ثغر جميل، كأن الراح (الخمر) ينهل منه فيجعل رائحته جميلة ... إلخ إلخ ..

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

فيا لها خلة قد سيط من دمها فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها كما تلوّن في أثوابها الغول
وما تمسّك بالوعد الذي وعدت إلا كما تمسك الماء الغرابيل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلى الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما لهن، إخال، الدهرَ تعجيل
أمست سعاد بأرض لا تبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل

وقد روى عن عمر ابن الخطاب، أنه سأل يوما عن آية "أو يأخذهم على تخوّفٍ"، فسأل/ ما التخوّف؟ فأجاب بعض الحابة: هو التنقص، قال الشاعر:

تخوّف الرحل منها تامكاً قرِداً كما تخوّف عود النبعة السَفِنُ

قال عمر: أيها الناس احفظوا ديوان شعركم في جاهليتكم فإن فيه تفسير كتابكم"

وقد قال ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة، في فضل حفظ أشعار العربؤورواياتها " فقد وجدنا الشاعرَ من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ومعرفة الأخبار، أنه إذا كان راوية عرفَ المقاصد، وسهلَ عليه مآخذ الكلام، ولم يضق به المذهبُ، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية، ضلَّ واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلبَ المعنى لم يصل إليه وهو ماثل بين يديه، لضعف آلته، كالمُقعد يجد في نفسه القوة على النهوض، فلا تعينه الآلة"

ولا أريد الاستشهاد بما ورد عن ابن عباس ترجمان القرآن، من قصة استماعه وحفظه لقصيدة عمر ابن أبي ربيعة الشهيرة

أمن آل نعمٍ أنت غاد فمبكرٌ غداة غدٍ أو رائح فمُهجرُ

وذلك لعوار في صحة سندها أتى من روايتها في الأغاني للأصفهاني الشيعي.

ولعل في هذا القليل الكفاية حتى يثوب أولئك الشباب هن مهم سلفيتهم المُنكرة، وإلا فهم يرمون رسول الله بأنه رضي وأقر منكرا دون أن ينكره، وفي هذا ما فيه من السخط والغواية.

وما كتبنا في دراسة القوس العذراء بين الشمّاخ ومحمود شاكر، ليس فيه حديث عن نساءٍ البتة، بل هو حجيث عن قوس كني عنها بفتاة عذراء لا حقيقة لها، إلا فيما حمل الشاعران من مودة وحب للقوس**!**

د طارق عبد الحليم 14 يناير 2018 – 27 ربيع ثان 1439

